صفوة النساء

سيدات نساء أهل الجنة

بقلم

جيهان محمود متولي

قدم له: د. عمر عبد الكافي

٢١٠/٤
م ، ج ص

صفوة النساء

سيدات نساء أهل الجنة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م

يطلب من: حسن شرف
هاتف محمول: ٩٧١٥٠٦١٣٥٩١٨
الإمارات ـ دبي

صَفوَةُ النِّسَاءِ

سَيِّدَاتُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ

السيدة خديجة بنت خويلد - السيدة فاطمة بنت محمد
السيدة مريم بنت عمران - السيدة آسية بنت مزاحم

بقلم

جيهان محمود متولي

تقديم: أ. د. عمر عبد الكافي

مراجعة: علاء الدين مارديني

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرئي هذا الكتاب
إذا تاهت أمام عينيك الطرقات
وإذا تبعثرت بين يديك الأوراق
وإذا بحثت عن قدوة لك تساعدك
على المرور أمام كل هذه العثرات. . .
فاقرئي هذا الكتاب لعلك تجدي فيه
ما يهدي قلبك ويريح نفسك ويعلو بهمتك
لعلك تجدي قدوتك الصالحة. . .

إهداء

إلى كل فتاة مسلمة وإلى كل امرأة مؤمنة

إلى كل أم فاضلة وإلى كل جدة صالحة...

إلى كل ما اشتاقت نفسها لمعرفة المزيد عن سلفها الصالح، وكل من اشتاقت روحها لمعرفة جنة ربها وساكنيها.....

إليكِ أهدي هذا الكتاب

مقدمة الكتاب

بقلم فضيلة الدكتور «عمر عبد الكافي»

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد. . .

عندما ترفع الأمة الإسلامية من شأن سلفها الصالح ـ رجالاً ونساءً ـ إنما ترفع من شأنها وتعلي من قيمتها بين الأمم؛ لأن رموز كل أمة في كل وقت هم التيار النوراني والقوة النفسية التي تشحن وتشحذ الهمم فتذكر الغافل وتعين العاقل.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا قدّمت فيه ابنتنا الأستاذة **«جيهان محمود»** لمحات سريعة ومضيئة عن حياة أربعة من النساء في التاريخ؛ صنعن في تاريخ الإنسانية ما لم يستطع آلاف وملايين من الرجال والنساء فعله.

ولقد اختارت الأستاذة جيهان أربعاً من النساء اللاتي تركن بصمات واضحة ومؤثرة في حياة الإنسانية.

فهذه آسية امرأة فرعون تضع لكل امرأة في العالم أسوة

وقدوة للمرأة الصابرة المحتسبة العابدة التي لا يثنيها عن إرضاء ربها شيء، وهذه مريم التي اصطفاها الله سبحانه على نساء العالمين لتنجب بمعجزة ربانية روح الله عيسى بعد أن نفخ الله فيها من روحه ليكون عليه السلام بعد ذلك رسالة محبة وسلام لهذه البشرية.

أما دور أمنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في حياة رسولنا الكريم في بداية الدعوة فكانت نعم المعين له على أمر الله سبحانه في تنفيذه وتبليغه وظلَّ يذكرها بالخير إلى أن ماتت رضي الله عنها.

أما ابنتها العظيمة، الجليلة، أم الحسنين، **«فاطمة الزهراء»** (أم أبيها) كما كانت تلقب فهي بحر من الخلق والصبر لأنها (ذرية بعضها من بعض).

إننا في أمسِّ الحاجة هذه الفترة إلى أمثال هذه النماذج العظيمة لتهتدي بها نساؤنا وبناتنا... ونحن في انتظار المزيد من الأستاذة جيهان محمود في هذا الباب.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

الفقير إلى عفو ربه

عمر عبد الكافي

مقدمة

الحمد للَّه رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا بحث متواضع يقدّم سيرة بعض النساء ولكنهن ليسوا كأي نساء بل هن قمة الخالدات، وصفوة المؤمنات، وخيرة خلق الله من السيدات، وعن أنس رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال:

حسبك من نساء العالمين: **«مريم بنت عمران، خديجة بنت خويلد، فاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»**(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطّ رسول الله ﷺ في الأرض (أربعة خطوط)، قال: **«أتدرون ما هذا؟»**، فقالوا الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ(٢):

«أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم، صحيح الجامع الصغير (٣٣٢٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده وصححه العلّامة أحمد شاكر (٤/٣٢٣)، صحيح الجامع (١١٣٥).

وعَبر هذه الصفحات نقترب أكثر من سيرة تلك الكوكبة المشرقة لعلنا نقتبس شيئاً من نورها، ونحذو حذوا من أخلاقها، وكما يقول الشاعر:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

ففي هذا العصر المليء بالمتناقضات؛ أصبحت الحاجة ماسة إلى وجود قدوة حسنة، تقتدي بها بناتنا ونسائنا، ونماذج مشرفة نضعها أمام أعيننا لتكون نبراساً لنا وتاجاً نضعه على رؤسنا، نتعلمه ونتدارسه، ونهتدي بهديه. وكما يقول الشاعر:

لو كان النساء كما ذكرنا لفضلت النساءُ على الرجالِ
وما التأنيث لإسم الشمس عيبٌ وما التذكير فخرٌ للهلالِ

فاللهم انفع به كل من تقرأه، واجعله عملاًمتقبلا صالحاً إن شاء الله...

هذا وبالله التوفيق.

جيهان محمود متولي

ترتيب الشخصيات على صفحات هذا الكتاب

سيدات نساء أهل الجنة كما عِلِمناهم أربعة ؛عاصرت كل واحدة منهن عصراً مختلفاً وأحداثاً مغايرة، وعلى الرغم من تباين المكان والزمان والأحداث، فإن السمات التي جمعتهن متشابهة، والأخلاق والصفات التي تحلّت بها كل شخصية منهن تكاد تكون واحدة، فأصل الخُلق الجميل لديهن واحد وإن اختلفت الصفات. . .

فلقد عاشت السيدة الشريفة خالدة الذكر أم المؤمنين «**خديجة بنت خويلد**»، جزء من حياتها قبل ظهور الإسلام، ثم عاصرت مع زوجها الكريم سيدنا محمد ﷺ بدايات ظهور الدين الجديد، فأعطت وضحّت وبذلت في سبيل الإسلام كل غالٍ ونفيس، لكنها رضي الله عنها أسلمت روحها الطاهرة إلى بارئها قبل الهجرة بعامين أوثلاث، بعد أن بُشِّرت ببيتٍ في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.

ثم يأتي دور الابنة الجليلة وأحب أهلها إلى أبيها «**فاطمة بنت محمد**» لتكمل ما بدأته أمها رضي الله عنها، فكانت نعم العون لأبيها وخير السند لرسوله حتى أنها لُقبت «**بأم أبيها**» من فرط ما اهتمت بشأنه وأمره، شهدت مع الرسول الكريم أحداث الإسلام الجسام كالهجرة، وفتح مكة، وعاشت رضي الله عنها حتى مات عنها أبيها ﷺ فكانت أول أهله لحوقاً به، فماتت بعده بستة أشهر ؛وحسبها أنها بصبرها وحسن خلقها، أصبحت سيدة من

سيدات نساء أهل الجنة، وسيدة نساء العالمين أي عالمنا نحن معشر المسلمات.

أما الشخصيتان الكريمتان الأُخريتان فقد عاشت إحداهما في العصر الفرعونى وهي السيدة «**آسية بنت مزاحم**» زوجة فرعون والتي إستطاعت ومع عشرتها لأخبث خلق الله أن تحجز مكانها في أعلى درجات الجنان، وحسبها من ذلك أن الله سبحانه وتعالى بنى لها بيتا، بل قصراً في الجنة، ونجاها من فرعون وعمله، وخلد ذكراها في كتاب كريم يتلى إلى يوم الدين، والشخصية الثانية هي الأم العذراء «**مريم ابنة عمران**» التي عاشت في عصر آخر تلى عصر سيدنا موسى وجاء بعده بحوالى أربعمائة عام وهو بدايات ظهور الديانة المسيحية على يد نبي الله عيسى ابن السيدة مريم عليها السلام .. والتي اصطفاها الله سبحانه وتعالى، وجعلها بصبرها وقوة احتمالها للشدائد سيدة لنساء العالمين أي نساء عالمها الذي عاصرته، وسيدة من سيدات نساء أهل الجنة الأربعة إن لم تكن أولهن.

وقد كُتبت سيرة هذه الكوكبة على مر التاريخ بحروف من نور... وربما نحن الآن في حاجة ماسة إلى استقرائها واستيعابها من جديد حتى لاتغيب ذكراهن العطرة وسيرتهن الجميلة عن أعيننا، وأذهاننا.

وقد تتوافر بعض مصادر المعلومات عن شخصيات معينة وقد تندر هذه المصادر مع شخصيات أخرى...

وقد تكون المعلومات التي وصلتنا عن سيدتنا خديجة وابنتها السيدة فاطمة قليلة إلى حد ما، لذا آثرت أن أبدأ بهما في هذا البحث المتواضع، وحاولتُ أن أكتب عنهما باستفاضة، وإن كنت أشعر أنني مهما كتبت ومهما قلت عنهما فلن أُوفي لكل شخصية منهما حقها

ففضلهما كبير وحُسن صنيعهما لنصرة نبينا محمد ﷺ أمر جليل تعجز عن وصفه الكلمات.

ونحن حري بنا ونحن نصلي عليهن في كل صلاة أن نعرف من هم؟ ألا نقول في تشهدنا للصلاة «**اللهم صلِ على محمد وعلى آل محمد**» وما آل محمد إلا أهله أزواجه وبناته، فهم خيرة خلقه إلى يوم الدين، وقد أمرنا الله أن نقرأ قصصهم ونتعلم منها العبرة والعظة.. أليس هو القائل سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ . . .﴾ [يوسف: ١١١].

فآثرتُ أن أبدأ بهما لأسباب ذاتية في المقام الأول فحبي لهما وشوقي للكتابة عنهما يجعلاني أفضل أن أبدأ بهما، إلى جانب انهما الأقرب إلينا تاريخياً، ففضلت أن أبدأ في عرض الشخصيات من الأحدث إلى الأقدم.

وبالتالي يصبح ترتيب الشخصيات على صفحات هذا الكتاب كالآتي:

١ ـ السيدة فاطمة بنت محمد.

٢ ـ السيدة خديجة بنت خويلد.

٣ ـ السيدة مريم ابنة عمران.

٤ ـ السيدة آسية بنت مزاحم. رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين، وجعل لنا فيهن القدوة الحسنة.

وقد تجدر بنا الإشارة إلى أن سرد هذه الشخصيات ومعرفتهاعن قرب لا يعنى أنها معرفة تمجيد وتقديس، بل هي معرفة محاكاة وتأسى،

فلنعرف عن قرب كيف تكون المحبة لله، وكيف يكون القرب منه، وكيف يكون الاستسلام لقضائه برضىً ودون سخط في السراء والضراء، ولنعمل معاً جاهدين أن نتأسى بسيرتهن ونجعل خُلقهن الكريم الذي أوصلهن إلى هذه المنزلة دائماً أمام أعيننا، لعلنا نصل إلى جزء صغير مما وصلوا إليه . .

السيدة فاطمة الزهراء

ابنة سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ

السيدة فاطمة الزهراء

يقول محمد إقبال شاعر باكستان في السيدة فاطمة:

هي بنت من؟ هي أمُّ من؟ هي زوج من؟
من ذا يساوي في الأنام علاها
أمّا أبوها فهو أشرف مرسل
جبريل بالتوحيد قد ربّاها
وعليٌّ زوج لا تَسَلْ عنه فما
أزكى شمائله وما أزكاها
إيوانه كوخٌ وكنز ثرائه
سيف غدا بيمينه تيّاها

هي بضعة من أبيها، وأكثر خَلق الله شبهاً به، هي مسك ختام بنات الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وهي الريحانة، فلذة كبد أُمِها، وأحب أهل أبيها إليه، فطرتها التدين والنقاء، وفعلها آية في مكارم الأخلاق، هي الزاهدة العابدة أم الحسن والحسين وزوج الإمام عليّ وبنت سيد الثقلين...

إنها السيدة «**فاطمة بنت محمد**» والمعروفة بلقب «**فاطمة الزهراء**» ابنة سيد الأنبياء والمرسلين وخيرة خلقه والمبعوث رحمة للعالمين، وأمها أم المؤمنين السيدة «**خديجة بنت خويلد**»، وهي أصغر الأخوات الحبيبات؛ زينب، ورُقية، وأم كلثوم.

وفي صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إنما فاطمة بضعة مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها»(١).

«خير نساء العالمين أربع: مريم وآسية وخديجة **وفاطمة**...»(٢).

وعن ابن جريج: «**قال لي غير واحد: كانت فاطمة أصغر بنات النبي ﷺ وأحبهن إليه...**»(٣).

وهي نسمة طاهرة وشخصية غنية بصفاتها، ثرية في علمها، نراها وهي «**فتاة**» جميلة الخَلق زكية الخُلق، ونراها وهي «**أم**» حنونة القلب واسعة الصدر، ونراها وهي «**زوجة**» صبورة الطبع وبشوشة الوجه، ونراها وهي «**ابنة**» بارة بأبيها وبأمها، ومع أخواتها صاحبة القلب الكبير والرأي السديد والوفاء الشديد.

نلمح علاقتها بربها فنجدها شديدة القرب ومع قرآنها كثيرة التدبر، ومع صلاتها مطيلة السجود، ومع من حولها كريمة عطوفة.

شكلت منظومة خاصة بها وتحلت بصفات تفردت بها وهي في كل ذلك لم يخالطها شيء من الزهو ولا الخيلاء، وهي تصلح أن تكون قدوة في جميع مراحلها، فهنيئاً لمن تقتدي بها ولمن تضعها أمامها منهجاً ونبراساً...

وُلدت السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ قبل بعثة(٤) **المصطفى ﷺ** بخمس سنين، تحديداً في يوم الجمعة الموافق ٢٠ من

---

(١) رواه البخاري.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد والطبراني عن أنس ـ صحيح الجامع (٣٣٢٨).

(٣) رجاله إلى ابن جريج رجال الصحيح ـ مجمع الزوائد (٩/ ٢١٤).

(٤) ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٩) ـ وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ولدت فاطمة رضي الله عنها سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ (٤/ ٤٤٨).

جمادى الآخر، في العام الذي اختلفت فيه قريش على وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة فوضعه رسول الله ﷺ، ولما عاد إلى بيته تلقى نبأ مولد ابنته فتهلل ودخل على خديجة رضي الله عنها وبارك لها في مولودتها ودعا بالبركة فيها وفي ذريتها.

سبب تسميتها وألقابها:

كان من عادة العرب أن يطلقوا على أولادهم ألقاباً من صفاتهم التي ولدوا بها وكانت السيدة «**فاطمة رضي الله عنها وأرضاها**» مولودة جميلة، ينبعث من وجهها نوراً وكانت ذات بياض لافت للنظر، حتى أن كل من يراها يقول عنها بيضاء اللون، أو زهراء الوجه، فما كان الا أن لُقبت رضي الله عنها بالزهراء أما سبب تسميتها بفاطمة ؛ فقد كان هذا الاسم متداولاً بين نساء قريش ونساء العرب بشكل عام ؛ غير أنه قيل أنها سُميت به لأن الله سبحانه وتعالى قد فطمها وذريتها عن النار، وقد كان هذا الاسم منتشراً بين العرب في ذلك الوقت، حتى انه رُوي عن النبي ﷺ أنه في إحدى لفتاته الكريمة للإحتفاء بالنساء من أهله وعشيرته، أنه أهدى قطعة من إستبرق أي (قطعة من قماش الحرير الغليظ) وقال لعلي ابن أبي طالب ابن عمه وزوج ابنته فاطمة «**إجعلها خمراً [أي قسماً] بين الفواطم**»(١) فشقه ابن العم إلى أربعة جعل أحدها لفاطمة بنت رسول الله ﷺ «**زوجته**»، والثانية إلى فاطمة بنت أسد بن هاشم «**أمه**» ، والثالثة لفاطمةبنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب «**ابنة عمه**» ، والرابعة لفاطمة بنت أبي طالب «**أخته**»، والملقبة بأم هانئ، مما يدلنا ان اسم فاطمة كان منتشراً بين نساء العرب آن ذاك بل إنه كان للأكارم منهن في ذلك الوقت.

---

(١) حديث صحيح رواه ابن ماجه ـ صحيح ابن ماجه (٢٩١٣) للألباني.

البتول:

أما اللقب الثانى الذي عُرفت به فهو «**البتول**» أي الطاهرة وقد كانت تُعرف به كذلك السيدة مريم رضي الله عنها وأرضاها، وقد كانت السيدة فاطمة ﵂ نقية، تقية، دائماً تنبعث منها رائحة عطرة زكية، وقد كانت صفة الطُهر عاملًا مشتركاً في كل حواسها ﵂؛ فقد كانت طاهرة النفس، طاهرة القلب وطاهرة الثوب، وكانت أغلب عبادتها الصلاة وكلنا يعلم أن الصلاة لا تتم إلا بالطهور، لذلك فهى تستحق هذا اللقب الذي إن دلَّ على شيء إنما يدل على شدة عبادتها وكثرة صلاتها آناء الليل وأثناء النهار.

أم أبيها:

ومن الألقاب التي عُرفت أيضاً عن السيدة فاطمة لقب «**أم أبيها**» وذلك لما عُرف عنها من محبتها الشديدة لأبيها وكثرة تعلقها به، فقد شعرت الفتاة الصغيرة بعد زواج أُخواتها زينب ورقية وأم كلثوم؛ بشيء من الوحدة ووجدت نفسها وهي في الخامسة من عمرها تقريباً، تواجه حياةً جديدةً لم تكن تتعهدها من قبل ووعت أكثر من غيرها معنى أن تكون ابنة لرسول الله ﷺ وتعمقت في نفسها معاني عظيمة للرسالة الإلهية التي اختير لها أبيها فما كان منها الا أن توحدت في هذا الدين وانصهرت في بوتقته العظيمة، وراحت تنفض عنها الطفولة اللاهية ومرح الصبا، ولم تعد تشعر بالوحدة التي كانت فيها قبل بعثة أبيها ﷺ فلقد ربط الإسلام بينها وبين أبيها المصطفى، ووالدتها أم المؤمنين، وأخواتها المسلمات، برابطة أقوى من النسب وأغلى من من الدم وأقرب من الرحم، ونسي كل فرد في البيت المحمدي شواغله الخاصة، منذ أن تلاقوا جميعاً حول دين

واحد، لايدينون بغيره، ورب واحد، يجثون له سجداً لا يشركون به إلهاً آخر ولا يعبدون رباً سواه[١].

وكان ﷺ يصطحب معه صغيرته المؤمنة أثناء طوافه بالبيت وأثناء صلاته، وكانت «**فاطمة**» على الرغم من صغر سنها وحداثة عهدها إلا أنها كانت بفطرتها الإيمانية تعرف أن أبيها يتعرض للإيذاء من قبل الكافرين وكانت رضي الله عنها إذا آذاه أحد من الكفار تهرع في اماطة الأذى عنه ﷺ.

وفي أحد أيام صلاة النبي ﷺ عند المسجد الحرام وأثناء سجوده جاء أحد الكفار واسمه «**عقبة بن أبي معيط**» وألقى على ظهره الشريف بقايا من أمعاء ناقة كانت مذبوحة بالأمس، فجاءت الابنة الحبيبة الصغيرة وأخذت تميط الأذى عن أبيها وهي تصرخ في وجه من آذوه ولا أحد من الكفار يجرؤ أن يرد عليها، حيث أنها كانت صغيرة السن، حديثة العهد بالطفولة وشُجاعة القلب، وشديدة الحب لأبيها ومستميتة في الدفاع عنه[٢].

مكانتها عند أبيها:

السيدة فاطمة هي الابنة الرابعة لرسول الله ﷺ، فقد وُلدت بعد الفاضلات الشريفات زينب، ورقية، وأم كلثوم، وُلدت السيدة فاطمة ورسول الله يستعد لتلقي النبوة والرسالة فلقد حُبب إليه التعبد في غار حراء، وكانت أمها السيدة خديجة تُهيىء أجواء البيت لتلقى البشرى من زوجها ليصبح رسول هذه الأمة فقد كانت هناك مقدمات كثيرة لذلك. وقد

(١) تراجم سيدات بيت النبوة.

(٢) انظر فتح الباري (٧/ ١٦٥).

جاء مولدها بعد حادثة الحجر الأسود، فكان مولدها خيراً على أهلها فاحتفوا بها أشد الاحتفاء وكان الاحتفاء بمولد البنات في هذه البيئة الصحراوية شيئاً مستغرباً خاصة إذا علمنا أنها البنت الرابعة!! ولكنه الرسول ﷺ الذي علمنا في سيرته العطرة أن للبنات فضل على البنين وليس العكس!

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

«**من وُلدت له ابنة فلم يئدها، ولم يُهنها، ولم يُؤثر وَلده عليها** ـ يعني الذكور ـ **أدخله الله ﷻ بها الجنة**»[1].

وقد قيل... أن البنات حسنات والبنون نعمة، فالحسنات يثاب عليها والنعمة يُسأل عنها!!

وفي حديث آخر رواه مسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:

«جاءتني مسكينة تحمل إبنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فاعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها [فمها] تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «**إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار**»[2].

عاشت فاطمة الفتاة الصغيرة في كنف أعظم والدين، وصحبت أباها في أسعد الأيام، ثم في أقساها مرارة، وتحملت معه الألم النبيل، وقد

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٢٩٤) تحقيق أحمد شاكر ـ ورواه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٧٧ كتاب البر والصلة وقال: صحيح الإسناد.

(٢) صحيح مسلم (١٦/ ١٧٩) كتاب البر والصلة: باب الإحسان إلى البنات.

كانت لها في قلب أبيها المكانة الخاصة فقد صحبته في حصار الشعب، وكانت معه في صلاته، وطوافه حول الكعبة ؛حيث كان صغر سنها يتيح لها ذلك دوناً عن اخواتها، ولما ترعرعت أبت إلا ان تكون مع أبيها في كنفه ترعاه وتخفف عنه ما يلقاه من أذى المشركين فكانت بحق أماً لأبيها!

عاشت السيدة «**فاطمة الزهراء**» طفولة بدأت بالرفاهية حيث كانت لها مرضعة وكانت تعتني بها خادمة خاصة، وترعرعت في أُسرة ميسورة الحال إلى حد كبير ثم ما لبث الحال أن تغير رويداً رويداً، حتى أنها ﵂ قاست مع أبواها الشريفين حصار الشعب ؛ الذي قاطعت فيه قريش كل من آمن مع الرسول الكريم وحاصرتهم حصاراً شديداً ؛ بهدف التضييق عليهم فعرضتهم للتجويع، وحرّمت التعامل معهم، فما لبث المؤمنين وعلى رأسهم آل بيت النبوة أن تأثروا تأثراً شديداً أثّر عليهم واصابهم بالضعف والمرض وكان لهذه الحادثة الأثر الكبير في مرض وموت السيدة الفاضلة «**خديجة**» الأم الحنون للسيدة فاطمة ومنذ هذه الحادثة بدأت السيدة فاطمة طريق الألم والأمل معاً ؛ الألم لأنها تحملت مع أبيها مشاق الدعوة وصعوبتها خاصة في مراحلها الأولى. . . والأمل لأنها في سبيل ما تحملته وكابدته في حياتها جزاها الله خير الجزاء وجعلها سيدة من سيدات أهل الجنة الأربع..

لكن هذه المكانة لم تبلغها بالشيء اليسير بل عانت وتحملت وصبرت على الجوع والمرض والآم الفراق فقد ماتت أخواتها الثلاث أمام عينيها ومن قبلهم أمها وقد صدقت السيدة فاطمة التي أنشدت شعراً تقول في بعض أبياته:

صُبت علىَ مصائب لو أنها صُبت على الأيام لصرن لياليا[1]

ولكن أهل بيت النبوة كما قال رسول الله ﷺ ينظرون إلى الدنيا كأنها جناح بعوضة، وعن سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء**»[2]. وكما قال الله تعالى في سورة النساء آية: ٧٧: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

ملازمتها لأبيها:

لم تُخطب السيدة فاطمة صغيرة السن كما كانت العادة عند العرب في ذلك الوقت، وذلك لأنها كانت ترفض أن تترك أبيها حيث كانت تريد أن تطمئن عليه وعلى حياته التي تعرضت للخطر مرات كثيرة؛ فكانت فاطمة تنام على فراشها وهي مهمومة بهمّ أبيها. لقد هجرت السيدة «**فاطمة بنت محمدٍ**» الطفولة منذ صغرها وعاشت أماً لأبيها بعد موت أمها خديجة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ وكانت تخفف عنه الأحزان وترد عنه أذى مشركى قريش في صغرها، ولما كبرت قليلاً ظلت تتابع معه تطورات الدعوة إلى الله، وتعينه على شأنه، وتسهر على راحته...

ذاقت السيدة فاطمة آلام اليُتم وهي في سن صغيرة فوجهت كل عاطفتها إلى أبيها الذي بادلها المحبة بالعطف وبادلها الإهتمام بإهتمام أكبر وأولاها من الرعاية والمحبة والحنان مالم يُوليه غيرها.

وكانت فاطمة ذات يوم مع أبيها يوم خرج ﷺ إلى قريش وقد نزل

---

(١) عظماء الإسلام.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي عن سهل بن سعد، صحيح الترمذي للألباني (٢٣٢٠) وهو في السلسلة الصحيحة للألباني وصحيح الجامع (٥٢٩٢) وهو صحيح بمجموع طرقه.

عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فجعل ينادي بأعلى صوت له «**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم.. لا أغني عنكم من الله شيئاً.. يا بني عبد مناف لا أُغني عنكم من الله شيئاً.. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً.. وختم بالإبنة الغالية فقال يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً**»(١).

ولا شك أنها وعلى صغر سنها أدركت المسئولية التي ألقيت على ظهرها من هذا اليوم فهي القدوة والمثل، وكأنها انتشت وفرحت باختيار أبوها لها من بين أخواتها جميعاً بل من أهل بيته الخاص ليؤكد للبشر أنه لا يغني من الله شيئاً عن أعز الناس عنده واحبهم اليه، وأدناهم منه...

وتروي لنا السيدة عائشة أم المؤمنين: «**أن فاطمة كانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام اليها فرحب بها، وقبلها، وأجلسها في مجلسه. وكان إذا دخل عليها قامت اليه، فأخذت بيده، فرحبت به وقبلته، وأجلسته في مجلسها. وأنها دخلت عليه في مرضه الذي تُوفي فيه، فرحب بها وقبّلها!!**». حتى وهو يعاني من سكرات الموت...

وقد كان من عادة رسول الله ﷺ أن يقف ويسلم عليها ويطبع قبلة على جبينها بين عينيها وقد كان ذلك مستغرباً في بيئة صحراوية جافة وفي مجتمع كان يئد البنات، لكن الله سبحانه وتعالى بعثه إلينا حقاً ليتمم مكارم الأخلاق...!

فقد قال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(٢).

---

(١) حديث متفق عليه: أخرجه الشيخان.

(٢) رواه الحاكم بإسناد صحيح - صحيح الجامع (٢٣٤٩).

أشياء خُصت بها السيدة فاطمة:

السيدة فاطمة الزهراء هي الإبنة الوحيدة التي أطال الله سبحانه وتعالى في عمرها بعد موت كل أولاد رسول الله في حياته، وكانت الوحيدة التي ماتت بعد رسول الله ﷺ، لم تفارقه منذ نزول الوحي، حتى بعد أن تزوجت كانت تزوره كل يوم أو يأتي هو اليها ليزورها، وكم من مرة جاء اليها فوجدها مريضة وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي كان يمنعها من زيارة أبيها بعد زواجها وهي أول أهل بيته لحاقاً به، فقد ماتت بعده بستة أشهر فقط.

من الأشياء التي فضّل الله جلّت قدرته وعُلاه بها السيدة فاطمة أيضاً أن ذرية أبيها سيدنا محمد ﷺ انحصرت في نسلها فأنجبت أربعة من الأبناء ولدين وبنتين ؛الحسن، والحسين، وزينب، وأم كلثوم أمدَّ الله في أعمارهم جميعاً حتى ماتوا بعد موت جدهم سيدنا محمد ﷺ.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه لما كان يأتي من أسفاره كان أول ما يفعله أن يذهب إلى المسجد فيُثني بركعتين، ثم يذهب إلى بيت فاطمة ليسلم عليها، ويتفقد أحوالها، قبل أن يأتي بيت أحد من أزواجه. . .

وحُب النبي الكريم لابنته فاطمة ما كان ليؤثر على محبته لبناته الأخريات، ومن الممكن الإستنتاج بأن حظ فاطمة من أبيها قد زاد بعد موت هؤلاء الأخوات، وتضاعف بعد أن رُزقت بالأحفاد الأعزاء.

صفاتها:

كانت رضي الله عنها وفية، عطوفة، رقيقة، حياتها كلها كانت تعبيراً عن فقه النبوة الذي تلقته عن سيدنا رسول الله ﷺ، كانت رضي الله عنها كريمة الخلق، نبيلة

النفس، مرهفة الحس، سريعة الفهم فقد عرف عنها شدة الذكاء والفطنة حيث تمكنت معاني القرآن الكريم من نفسها وأنارت سُنَّة أبيها سيدنا محمد قلبها، وكانت على مكانتها بين قومها وعلى جمالها ونسبها من أمها وأبيها. . .كانت شديدة التواضع لا يخالطها شيء من الكبر أو الخيلاء، عاشت قبل وفاة أبيها متهللة العزة، وضاحة المحيا، حسنة البِشر، باسمة الثغر وغربت بسمتها منذ وفاة أبيها ﷺ فلم تُرَ بعد وفاته مبتسمة!!

والسيدة فاطمة الزهراء كانت بضعة من أبيها، مفطورة على العفة والطهر والنقاء لا يجري لسانها بغير الحق، ولا تنطق الا بالصدق، ولا تذكر أحداً بسوء، فلا غيبة ولا نميمة ولا همز ولا لمز، تحفظ السر وتفي بالوعد، وتصدق النُصح، وتقبل العذر، وتتجاوز عن الإساءة، وقد قالت عنها السيدة عائشة رضي الله عنها: **«ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة غير أبيها»**.

وعن أم المؤمنين عائشة أيضاً أنها قالت: **«ما رأيت أحداً كان أشبه سمتاً وهدياً وذلاً. . . من فاطمة كرّم الله وجهها كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها وقبّلها وأجلسها في مجلسه، كان إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده فقبّلته وأجلسته في مجلسها»**(١).

وكانت السيدة فاطمة أشبه بناته به ﷺ، وكانت كثيرة العبادة حافظة لكتاب الله عن ظهر غيب، وكانت موسوعة دينية، لها فقها ورأيها وورِدها اليومي من الكتاب والسُّنَّة وكانت شاعرة فقيهة، غير أنه لم يعرف عنها أنها أنشدت الشعر إلَّا بعد موت أبيها.

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود (٥٢١٧).

وفي لطيفة تُروى عن السيدة فاطمة الزهراء أنها وهي تجلس مع أبيها، استأذن في الدخول عليهما رجل أعمى، فلم تسمح السيدة فاطمة له بالدخول؛ فسألها أبيها: لِم حجبته وهو أعمى؟ فقالت:

يا رسول الله إن لم يكن يراني، فأنا أراه، وهو إن كان أعمى فهو يشم الريح. فقال النبي ﷺ أشهد أنكِ بضعة مني.

هجرتها والحادثة التي ألمَّت بها:

تحملت السيدة فاطمة وأخواتها الكثير من الإيذاء والاضطهاد على أيدي المشركين من كفار قريش، وذاقت وهي في ريعان شبابها آلام الجوع والحصار والظلم على أيدي مجتمع وثني لا يرضى بديلاً عن موروثاته الخاطئة، وحارب الدين الجديد، بكل ما أُوتي من قوة؛ لذلك كان لا بد من الرحيل والهجرة إلى أرض أخرى، يلجأ إليها النبي ﷺ هو، وأهل بيته والمسلمين...

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة التي كانت تعرف بيثرب، أرسل من يأتي بأهله ليلحقوا به في مقره الجديد، فخرجت السيدة فاطمة وأختها أم كلثوم ومعهما أم المؤمنين السيدة «**سودة بنت زمعة**» ـ رضي الله عنهن ـ جميعاً؛ يستعدون للرحيل...

وفي طريق الهجرة إلى المدينة نخس (ضرب) أحد المشركين وكان يدعى «**الحويرث القرشي**» الدابة التي كانت تحمل السيدة فاطمة وأختها أم كلثوم فرمت بهما الدابة في طريق الصحراء بين مكة والمدينة وأثرت عليها فجرحت ساقيها وكذلك أختها، وكانت السيدة فاطمة نحيفة الجسد، رقيقة الحس، سريعة الدمع فتأثرت لذلك أيما تأثر وقطعت

مسافة طويلة من الطريق باكية متألمة. . .! ولمّا علم رسول الله ﷺ بذلك حزن حزناً شديداً[١].

زواجها من علي كرَّم الله وجهه:

لمّا بلغت فاطمة مبلغ الزواج تقدّم لخطبتها خيرة أهل وصحابة رسول الله، وكيف لا والزواج منها شرف وأي شرف، لكن فاطمة نفسها لم تكن تلقي بالاً إلى الزواج، بالدرجة التي تفكر بها بنات اليوم مثلاً في هذا الأمر، على الرغم من بلوغها الثامنة عشر، في مجتمع تتزوج فيه البنات في سن مبكرة عن هذا بكثير. . .

ولعلها كانت لا تجد الوقت لديها لتفكر في نفسها أو زواجها، فقد عاشت لنصرة الدين الإسلامي الجميل وعاشت لترعى من اختاره الله لحمل لواء هذا الدين.. رسولنا الكريم ﷺ، ولعل فاطمة في هذه الفترة من حياتها عكفت على دراسة الدين، وتعلم أحكام القرآن الكريم، واهتمت بتنمية رصيدها الإيماني، وضاعفت من حسناتها، وأخذت بأيدى أخوات مثلها، ولما رآها الله جل علاه على ما كانت عليه كفاها ما أهمها من شؤون حياتها، وأرسل إليها ما كان ينقصها؛ شريك حياتها. . .

فتقدَّم لها «**أبو بكر الصديق**»، «**وعمر بن الخطاب**» فأجابهما رسول الله بقول جميل كما في «**النسائي**» إنها صغيرة وفي رواية أخرى «**إني أنتظر بها القضاء**». وهنا أشار عمر بن الخطاب على «**عليّ بن أبي طالب**» أن يتقدّم لخطبتها وقال له: (أنتَ لها يا عليّ).

---

(١) من عظماء الإسلام.

وُروي أن نفراً من الأنصار قالوا لعليّ بن أبي طالب عندك فاطمة فائت رسول الله فسلم عليه وكلمه. . .

فقال علي: «**بعد أبي بكر، وعمر. . .**»!

فأجابوه: «**ولم لا!؟. . . والله ما بين المسلمين وفيهم أبو بكر وعمر، من له مثل قرابتك من رسول الله ﷺ، فقد كفله أبوك، ورعته أمك، ثم نشأت في كنفه، ورُبيت في بيته، وكنت أسبق فتى إلى الإسلام. .**».

فتشجع عليٌّ وتقدّم لخطبتها وكان عمرها في حوالى الثامنة عشرة، وكان عليٌّ في الثانية والعشرين من عمره.

فلما ذهب عليٌّ إلى رسول الله فما كاد يجلس حتى قال له رسول الله ﷺ: «**ما حاجتكَ يا ابن أبي طالب؟**».

فذكر عليٌّ فاطمة رضي الله عنها فقال رسول الله: «**مرحباً وأهلاً**» ولم يزد، وخرج عليٌّ رضي الله عنه إلى أولئك الجمع من الأنصار وهم ينتظرونه قالوا: ما وراءك؟

قال عليٌّ رضي الله عنه: ما أدري غير أن رسول الله قال لي: مرحباً وأهلاً. . .

قالوا: يكفيكَ من رسول الله إحداهما: أعطاكَ الأهل وأعطاكَ المرحب؟

وفي اليوم التالي وقف عليٌّ رضي الله عنه قريباً من رسول الله فألقى عليه السلام، ثم قال: أردتُ أن أخطب فاطمة يا رسول الله. . .

فالتفت إليه رسول الله برفق وحنان ثم سأله : «**وهل عندكَ شيء**»؟ . . . يقصد هل عندكَ مال لتتزوج به؟

فرد عليه عليٌّ قائلاً : لا يا رسول الله.

فقال رسول الله : «**فأين درعك الحطمية التي أعطيتكَ يوم بدر؟**» .

فقال عليّ رضي الله عنه : هي عندي يا رسول الله.

فقال رسول الله : «**ائتِ بها**» .

فجاءه بها فأمره رسول الله أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها، وعلم «**عثمان بن عفان** رضي الله عنه»، بما كان بين رسول الله ﷺ، وعليٌّ رضي الله عنه فاشتراها منه ابن عفان وبالغ في الثمن ليمكنه من دفع ما يليق بصداق الزهراء فدفع إليه أربعمائة وسبعين درهماً فدفعها عليٌّ كلها صداقاً وتمت الخطبة(١).

وأعطى النبي ﷺ لبلال رضي الله عنه مبلغاً ليشتري ببعضه طيباً وعطراً ثم دفع الباقي إلى أم سلمة رضي الله عنها لتشتري ما يحتاج إليه العروسان من متاع وغيره.

ويا لها من سلاسة وبساطة في التعامل مع فقه الزواج! فلا تعقيد ولا تعجيز لكن يسر وسماحة والأهم من ذلك **الإيمان** تلك الكلمة السحرية التي تفتح الأبواب المغلقة وتشرح الصدور فما ان صدقت النية واكتمل الإيمان حتى سهل الأمر واكتمل.

وقبل الحفل قال رسول الله ﷺ لخادمه أنس بن مالك : (انطلق وادعِ

(١) حديث أورده الحافظ ابن حجر في الإصابة (٨/ ١٥٧) وتبعه بقوله : هذا مرسل صحيح الإسناد.

لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وغيرهم من المهاجرين والأنصار) ودعا أنس جمعاً كبيراً من المسلمين.

في ليلة زفاف السيدة فاطمة الزهراء، أرسل المهاجرون والأنصار بالكثير من الهدايا إلى الرسول ﷺ، ـ الذى قبل الهدية ـ كالقمح المطحون، والسمن، والأغنام، والبقر، فأمر النبي بطحن الحبوب وذبح الأغنام والمواشي.. ودعا الناس إلى الطعام، ويقال أن عدد من أكل في ليلة زفاف الزهراء أربعة آلاف، واقتصر طعام الوليمة على الثريد المكون من الخبز واللحم..

الموكب السعيد:

وركبت الزهراء «**الشهباء**» بغلة الرسول ﷺ وكان يحيطها هودج، وسار من خلفها أبوها ﷺ ومعه عمه حمزة رضي الله عنه، وجعفر، وعقيل، وبنو طالب، شاهرين سيوفهم فرحين.

ولعل هذا الزفاف النبوي الشريف يعطي لنا عدة دلالات مهمة؛ أولها أن البذخ والمبالغة في تكاليف حفلات الزفاف قد لا يجلب للعروسين سوى المتاعب وربما الحسد، ثانيهما أن إتباع السُّنَّة النبوية دائماً ما فيه الخير كل الخير لأصحابه ومطبقيه والعكس صحيح، فأحياناً ما يبدأ العروسان حياتهما الزوجية بمعصية عن جهل وقد تؤخر عنهما هذه المعصية الخير الكثير، وقد تهدر الأموال والطعام في ولائم مما لايعود بالخير على أصحابها وعن النبي ﷺ يقول: «**شر الطعام طعام الوليمة، يُمنعها من يأتيها، ويُدعى إليها من يأباها..**»[1].

(١) رواه مسلم (١٤٣٢).

وليكن لنا في رسول الله الإسوة الحسنة فهو لم يحرم الفقراء من وليمة ابنته ولم يدعو اليها كبار قومه ونسي باقي المسلمين، لكنه وازن بين الأمور وأغدق بالخير على الجميع.

وعن أبي الدرداء عويمر ﵁ قال: سمعت الرسول ﷺ **يقول**: «**أبغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتُنصرون بضعفائكم**»[١].

جهازها ﵂ وأرضاها:

في واقع الأمر ينبغي على المرء أن يغيّر من نظرته إلى الزواج أو إلى الحياة بأثرها ؛ اذا ما علم بالجهاز الذي تجهزت به إحدى سيدات أهل الجنة وابنة سيد الخلق أجمعين، ولا شك أنه حينها سيشعر بالخجل إذا ما قارنها بجهاز الفتيات المقبلات على الزواج اليوم. . . !!

وقد نتعجب اذا علمنا أن أكثر الأعراس مبالغة وإسرافاً لا تنتهي النهاية السعيدة بل على العكس قد تنتهى بحالة من الإفلاس، ولعل العرس الأكثر إسرافاً في الخلافة الإسلامية كان في العصر العباسى في عهد الخليفة العباسى «**المعتضد بالله**» الذي تزوج ابنة خمارويه والي مصر في ذلك الوقت الذي أسرف بدوره في جهاز ابنته «**قطر الندى**» إسرافاً شديداً ويقال أنه استمر أربعين يوماً. . !! كان من نتيجته أنه أفلس ثم مات بعدها بسنوات؛ مفلساً، مقتولاً . . !

وقد أجمع المؤرخون أنّ جهاز السيدة فاطمة كان يتكوّن من الآتي:

١ ـ رحى (طاحونة) يد لطحن الحبوب.

---

(١) حديث صحيح ـ رواه أحمد ومسلم. السلسلة الصحيحة (٧٧٩).

٢ ـ ستار رقيق من الصوف.

٣ ـ قدح للبن مصنوع من الخشب.

٤ ـ قربة صغيرة لحفظ الماء.

٥ ـ جرة خضراء، ومنخل لنخل الدقيق.

٦ ـ حصيرة مصنوعة في البحرين.

٧ ـ إناء من النحاس لغسل الثياب.

٨ ـ فراشين من الخيش، حشو أحدهما من الليف والآخر من صوف الغنم.

٩ ـ قميص بسبعة دراهم، وخمار بأربعة دراهم، عباءة.

١٠ ـ أربع وسادات محشوة بنبات جاف اسمه الإذخر، له رائحة طيبة.

١١ ـ سرير ملفوف بشريط من خوص ويفرش عليه صوفة غنم.

١٢ ـ مطهرة وهي إناء للوضوء وكيزان من خزف، وبعض أشياء صغيرة أخرى.

ويا لها من أشياء بسيطة وجهاز متواضع تُزف به ابنة رسول الله سيد الثقلين وخيرة خلقه، وسيد ولد آدم. . .!!! فيا له من درس عظيم يُعلمنا إياه رسولنا الكريم ﷺ، في أن العبرة والفوز بالإيمان وليس بالمال.

فكثيراً ما نسمع هذه الأيام عن فشل إحدى الزيجات لأن العروس اشترطت أن تكون غرفة النوم كلاسيكية على الطراز القديم، بينما العريس يصر على أن تكون الغرفة على الطراز الحديث مودرن، فتختلف الأُسرتان وينتهي العرس من قبل أن يبدأ، وكثيراً ما تحدث مشكلات لا حصر لها

قبل الزفاف نظراً لأن أهل العروس يصرون على أن يكون حفل الزفاف في فندق سبعة نجوم بينما العريس إمكاناته لا تسمح إلا بفندق ثلاث نجوم... وغيرها كثير من المهازل والتفاهات التي تحدث لا لشيء إلا لبعدنا عن سُنَّة حبيبنا المصطفى ﷺ ولتقليدنا للغير دون ادراك منا أن العزوف عن السُنَّة النبوية في كل الأمور وفي هذا الأمر بالذات سوف يؤدي إلى عواقب وخيمة.

تزوج «**عليّ**» «**فاطمة**» وبنى بها بعد عودة المسلمين من بدر في محرم في السنة الثانية من الهجرة.

وكان علي بن أبي طالب فقيراً وفي ذلك يقول عن نفسه:

لقد تزوجت فاطمة وما لي ولها غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار وما لي ولها خادم غيرها...

مشاعر السيدة فاطمة عند زفافها:

ولعلنا إذا اقتربنا أكثر من سيدتنا الفاضلة فاطمة في هذه اللحظات التي تدخل فيها إلى أعتاب حياة جديدة، لوجدنا أن لحظاتها هذه كانت تختلط فيها مشاعر الحزن والقلق والفرح، الحزن؛ لأن هذه هي المرة الأولى التي تفارق فيها الأب الحنون، ولو اقتربنا أكثر لوجدنا عيناها قد اغرورقت بالدموع وهي لا تدري كيف تكون حياتها، في بيت غير بيت أبيها...، ولعلها تذكرت أمها الحبيبة في هذه اللحظات وكم كانت تتمنى لو أنها تهمس في أذنيها بنصيحة، أو تعلمها شيئاً من حكمتها التي عُرفت بها، لكن الله سبحانه وتعالى لا ينسى من يذكره، ولا يتخلى عن من قصده أبداً... فها هو الأب الحنون يدعو لها، وها هي فاطمة تصلي

لربها وتبتهل اليه أن يوفقها في حياتها الجديدة. . . وتستمد منه العون. . وها هي تصلي حتى بعد زفافها ولم تنسى ربها أبداً. . .

ولعلنا هنا نهمس في أذن كل أم أن تتحين الفرصة لتعلم ابنتها من فنون ومهارات الحياة الزوجية، وان تجعل نفسها قدوة أمام ابنتها، تعلمها وتعطيها من خلاصة حكمتها وتجربتها، فالفتاة المسلمة حسنة الخلق، نبيلة المعشر لينة القول آلفة مألوفة، وهي في ذلك كله متأسية بخلق الرسول الكريم ﷺ وبناته رضي الله عنهن أجمعين.

انتقالها للعيش بجوار رسول الله ﷺ:

بنى علي بن أبي طالب بعروسه فاطمة في بيت أمه التي كانت تسمى أيضاً «**فاطمة**» بنت أسد، وفي رواية أُخرى انه استأجر لها بيتا صغيراً، وكان بيتها بعيداً عن بيت رسول الله وكانت السيدة فاطمة تتمنى أن تكون من السكن بقرب أبيها، وكانت تدعو ربها بذلك.. وسرعان ما تحقق أملها فقد جاءها النبي قائلاً: «**إني أريد أن أحولك إليّ**» فقالت لرسول الله: فكلم حارثة بن النعمان ـ وكان صاحب بيوت كثيرة في المدينة وكان يسكن بجوار رسول الله ـ أن يتحول وأكون أنا إلى جوارك.

فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء إلى النبي فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تحول فاطمة إليك وهذه منازلى وهي أقرب بيوت بني النجار بك وإنما أنا ومالي لله ولرسوله، والله يا رسول الله المال الذي تأخذ مني أحب إليّ من الذي تدع.

فقال له الرسول: «**صدقت بارك الله عليك**» فحولها رسول الله إلى بيت حارثة وأصبحت الزهراء بجوار أبيها. . .

وبدأت السيدة فاطمة ﵂ مرحلة جديدة من حياتها، كزوجة وأم بنفس صفاتها الجميلة، وعطائها اللامحدود.

حياتها مع علي وأولادها:

عاشت السيدة فاطمة حياة متواضعة بسيطة، شاقة خالية من كل مظاهر الراحة والترف وكانت تعمل بيدها بالرحى حتى أثر ذلك في بشرة يدها فتركت آثاراً على يديها الشريفتين ﵂ وأرضاها.

وعن علي ﵁ قال لأحد الصحابة، ألا أُحدثك عني وعن فاطمة ﵂ بنت رسول الله ﷺ، وكانت من أحب أهله إليه، وكانت عندي؟ قال: ـ بلى.

قال علي ﵁:

«إنها جرّت بالرحا حتى أثرت في يدها، واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها وكنست البيت حتى أغبرت ثيابها، فأتى النبي ﷺ خدم فقلت لو أتيت أباك فسألته خادماً فأتته فوجدت عنده حُداثاً (أي رجالاً يتحدثون) فرجعت، فأتاها من الغد فقال ما كان حاجتك؟ فسكتت فقلت: أنا أُحدثك يا رسول الله...

(وذكر له ما ألّم بها) وأكمل فلما أن جاءك الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حر ما هي فيه».

فاجابهما رسول الله ﷺ:

«اتقِ الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، وإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثاً وثلاثين، واحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبري

أربعاً وثلاثين فتلك مائة، فهي خير لكِ من خادم»[1]. قالت رضيت عن الله ورسوله. ولم تترك هذه التسبيحة أبداً طوال حياتها . . .

وهذا التوجيه النبوى الكريم. . . ينبغى أن يؤخذ منا مأخذ الجد والتنفيذ، وهو توجيه نبوي يسير يأمرنا بالتسبيح قبل النوم بهذه الصيغة، وفيه من الخير الكثير لكل ربة بيت أشقاها العمل في بيتها، ولكل شخص ثقل كاهله بمهام لايقدر عليها فعليه بهذه التسبيحة النبوية وسيجد فيها الخير الكثير إن شاء الله، كيف لا وهو تسبيح يصدر عن النبي الكريم الذي وصفه ربه سبحانه وتعالى بأنه لا ينطق عن الهوى فيقول تعالى في سورة النجم : ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٥].

السيدة فاطمة أُماً:

السيدة فاطمة كما وصفها لنا العلماء والمؤرخين، نحيفة الجسم رقيقة الملامح والسمات، كانت تمشي مثل أبيها، كيسة، هادئة، بها لمحة من الحزن والوقار، فضفاضة الملبس، بسيطة الثياب، وضاءة الوجه وإن كان يشوبه صفرة من شدة الإرهاق، متسترة، تتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقها، شديدة الإيمان. . . قليلة الطعام، كثيرة القيام للصلاة في الليل، متدبرة في قراءتها للقرآن.

لم تغير السيدة فاطمة من عبادتها بعد الزواج، وكيف لا وزوجها الإمام علي الذي ربّاه رسول الله ﷺ.

لم ينقطع الزوجان عن قيام الليل، ولم تنقص عبادتهما بل ربما

---

(١) متفق عليه من حديث الإمام علي كرّم الله وجهه، والنقل من اللؤلؤ: كتاب الذكر والدعاء (١٧٣٩).

زادت... وأعانا بعضهما بعض على التقرب لله، وتطبيق سُنَّة نبيه.

وقد علَّمنا الله سبحانه وتعالى أن من لجأ اليه لايخيب ظنه .. وقد كانت أمنية الزوجين أن يرزقهما الله بالذرية الصالحة، وقد كان.. وإذ بالخبر السعيد، بقرب وصول أول حفيد لرسول الله... ينتشر في الأرجاء...

وقد رُزقهما الله تعالى بالذرية الصالحة كذلك ببركة دعاء النبي ﷺ فقد رزقهما الله تعالى بالحسن والحسين وزينب وأم كلثوم. وكان الرسول ﷺ هو الذي يختار أسماء أبنائهما.

فقد رُزق الزوجان بإبنة فاختار الرسول لها اسم زينب على اسم ابنته الكبرى التي ماتت ﵂، وقد كانت زينب الصغيرة شديدة الشبه بخالتها ثم رزقت السيدة فاطمة وزوجها عليّ بمولودة أخرى سمَّاها النبي ﷺ «**أم كلثوم**»؛ إحياءً لذكرى ابنته الأخرى ـ التي كانت زوجة لعثمان بعد وفاة أختها رقية، وماتت هي الأخرى. وكان الرسول من قبل قد اختار اسم (الحسن) لابنهما البكر، الذي رُزقا به في السنة الثالثة بعد الهجرة، كما اختار اسم (الحسين) لأخيه الأصغر، الذي وُلد بعده بعام تقريباً.

محبة رسول الله لأحفاده الأعزاء:

قال النبي ﷺ: «**أتاني ملك فسلّم عليّ نزل من السماء لم ينزل قبلها فبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة**»[١].

ذُكرت روايات كثيرة عن محبة الرسول ﷺ لأحفاده وعن شدة تلطفه

(١) رواه ابن عساكر عن حذيفة ـ صحيح الجامع الصغير للألباني (٧٩).

معهما خاصة عندما كان يطيب لهما أن يتسابقا إلى رسول الله وهو ساجد في صلاته، لكي يمتطي أحدهما ظهره، فيطيل الرسول في سجدته حتى لايعكر عليهما متعتهما.

وكان ﷺ يدلل الحسن والحسين بعبارات لطيفة منغمة فكان يقول للطفل منهما.. خُزقة... خُزقة.. ترقة.. ترقة، والخزقة هو قصير القامة..!!

وكان ﷺ يقول: «**الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا**»(١).

وكان الرسول الحبيب يطلب من أحفاده أن ينادونه بلفظة (يا أبي) ليشعر بأنه لم يفقد أبناءه وبناته اللذين ماتوا، وكأن الله سبحانه وتعالى شاء أن يعوض صبره خيراً، فلم يفجعه في أحد من أحفاده، وهو على قيد الحياة.

صبر السيدة فاطمة وزهدها:

قال رسول الله ﷺ أقوالاً كثيرةً عن الصبر وجدواه، وثوابه عند الله سبحانه وتعالى، والصبر كما قال رسول الله بالنسبة للإيمان، بمثابة الرأس من الجسد(٢)، فلا إيمان بغير صبر، ولاطائل من وراء صبر بلا إيمان. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن حكمة الله سبحانه وتعالى شاءت أن تكون الدنيا دار كفاح وكدح، ومعاناة، وأن يجعل الانسان منها مزرعة للآخرة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

---

(١) حديث صحيح رواه الترمذي عن ابن عمر والنسائي ـ عن أنس صحيح الجامع (١٦٠٠).

(٢) ضعيف الجامع (٣٥٣٥). لكنه ثابت من قول علي بن أبي طالب ﷺ ورواه ابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب وغيرهما.

ورُوي أن رسول الله ﷺ كان يوما في زيارة لإبنته فوجدها ترتدي ثوباً خشناً، وتجلس على الأرض، وتدير الرحى، لتصنع الخبز، وتتصبب عرقاً وتلهث من فرط تعبها وعندما رأته نهضت كعادتها ورحبت بأبيها، وتناولت يده الكريمة فقبلتها، فتناول يدها الرقيقة وقبلها، ثم مد راحته ومسح عن جبينها الوضيء حبات العرق وقال لها في تأثر بالغ:

ـ تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة.

ولقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة**».

وفي يوم مرضت السيدة فاطمة وتأخرت عن زيارة أبيها فزارها النبي مستفسراً عن غيابها فوجدها مريضة ترقد على فراش خشن وقد شحب وجهها فاقترب منها ﷺ وتحسس بيده الكريمة جبينها ثم سألها: ـ

كيف تجدينك يا بنية؟ قالت إني لوجعة، وإنه ليزيدني مرضاً أني ما لي طعام لآكله...! فيا لها من حياة قاسية تلك التي عاشتها فاطمة الفتاة الرقيقة، النحيفة. وقد لا نصدق..!! ابنة رسول الله لا تجد طعاماً تأكله في مرضها! يا اللعجب!، ولكنه الصبر الذي يريد الله سبحانه وتعالى أن نتعلمه من أشرف خلق الله بعد رسوله. ولعلها البشارة بالجنة ونعيمها لكل من احتسب وصبر.

زهدها رضي الله عنها:

ويروي المؤرخون واقعة لها دلالتها العظيمة.. فى هذا الصدد؛ حيث سافر الرسول ﷺ وتغيّب بضعة أيام، ثم جاء لزيارة فاطمة وفي هذه المرة جاء رسول الله إلى ابنته فوجدها تلبس قلادة (سلسلة) وقرطين أي

حلق من الفضة، ووضعت ستاراً معصفراً أي ملوناً على باب غرفتها. . . وحينما رآها أبوها على هذه الحال كأنه كره أن يرى منها ذلك لكنه لم يخبرها وكأن فاطمة قد قرأت ذلك في عينيه.

فلما خرج رسول الله من عندها نزعت القلادة، والقرطين، كما حلّت الستار المعصفر، وأعطت كل ذلك لشخص وقالت له اذهب إلى رسول الله وقل له أن ابنته فاطمة تقرئك السلام وتقول لك اجعل هذا في سبيل الله. . . !

وعندما رأى رسول الله ذلك تهلل فرحاً وقال: ـ

«**قد فعلت! فداها أبوها، فداها أبوها. . .**» ليست الدنيا من محمد وآل محمد، ولو كانت الدنيا عند الله تعدل جناح بعوضة، ما سقى منها كافر شربة ماء. . .

هكذا تربت وهكذا عاشت زاهدة عظيمة راضية.

حُب الرسول ﷺ لها وفضلها:

عَنِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ: «**فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ**»(١).

وفي حديث آخر أَنَّ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ عَادَ فَاطِمَةَ وَهِيَ مَرِيْضَةٌ، فَقَالَ لَهَا: «**كَيْفَ تَجِدِيْنَكِ؟**».

قَالَتْ: إِنِّي وَجِعَةٌ، وَإِنَّهُ لَيَزِيْدُنِي، مَا لِي طَعَامٌ آكُلُهُ.

---

(١) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده وصححه الحاكم في المستدرك. حسّنه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٦/ ٥١٥) ـ صحيح الجامع (٤١٩٠).

قَالَ: «**يَا بُنَيَّةُ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُوْنِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ العَالَمِيْنَ؟**».

قَالَتْ: فَأَيْنَ مَرْيَمُ؟

قَالَ: «**تِلْكَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا، وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ، أَمَا ـ وَاللهِ ـ لَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»(١).

وهذا يؤكد قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ...﴾ [يونس: ٦٣ ـ ٦٤].

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي يَقْبِضُنِي مَا يَقْبِضُهَا، وَيَبْسُطُنِي مَا يَبْسُطُهَا**»(٢).

وَصَحَّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَّلَ فَاطِمَةَ وَزَوْجَهَا وَابْنَيْهِمَا بِكِسَاءٍ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ، وَطَهِّرْهُم تَطْهِيْراً**»(٣).

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال:

أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ كَانَ يَمُرُّ بِبَيْتِ فَاطِمَةَ، إِذَا خَرَجَ لِصَلَاةِ الفَجْرِ، يَقُوْلُ: «**الصَّلَاةَ يَا أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ**، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]».

ومن الأذكار المأثورة التي علمها لها رسول الله ﷺ والتي واظبت عليها؛ والتي ينبغي علينا نحن أيضاً أن نتعلمها هي تسبيحة (يا حي يا

---

(١) رواه عليّ بن الهاشم مرسلاً ـ ورواه ناصح أبو عبد الله عن جابر بن سمرة متصلاً. رواه أبو نعيم في حلية الأولياء.

(٢) إسناده جيد السلسلة الصحيحة (٤/ ٦٥٠).

(٣) حديث صحيح رواه الترمذي ـ صحيح الترمذي للألباني (٣٢٠٥).

قيوم برحمتك أستغيث، إصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين) فعن أنس بن مالك ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ لفاطمة ﷺ: «**ما يمنعك أن تسمعي ما أُوصيك بهِ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أَصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طَرفة عين**»(١).

وقال العلماء إن اقتران هذان الاسمان من أسماء الله الكريمين، هو أن الحيّ، متضمن لسائر الكمالات الذاتية، والقيوم: متضمن لسائر الكمالات في الفعل، فمن ذكرهما معاً فكأنما ذكر الله عز وجل بكل صفات كماله ولهذا كان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام بهما.

القرآن الكريم يتحدث عن فاطمة وزوجها:

وقد نزل في شأنها وزوجها قرآن يُتلى إلى يوم القيامة، فقد نزل جبريل الأمين على رسول الله بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ١٢].

وفي شرح هذه الآيات يقول عطاء عن ابن عباس:

وذلك ان عليّ بن أبي طالب ﷺ عمَل عملاً يسقي فيه نخل ليلة بطولها مقابل شيء من شعير فظل يعمل حتى أصبح وقبض الشعير فذهب به إلى فاطمة، فقامت وطحنت ثلثه، وأعدت منه صنفاً من الطعام يقال له

---

(١) حديث حسن. رواه النسائي والحاكم ـ صحيح الجامع (٥٨٢٠).

الخزيرة فلما تمّ إنضاجه أتى مسكين فاخرخوا اليه الطعام، ثم قامت السيدة فاطمة فطحنت الثلث الثاني فلما تمّ إنضاجه، أتى يتيم فسأل فأطعموه ثم قامت السيدة فاطمة فعملت الثلث الباقي فلما تمّ إنضاجه، أتى أسير من المشركين فأطعموه دون أن يأكلوا شيء من الطعام وطووا يومهم كذلك فأنزلت فيهم هذه الآية الكريمة من سورة الإنسان.

محبته ﷺ للابنة والزوج:

سأل عليّ رسول الله ﷺ ذات يوم:

أيهما أحب إلى رسول الله؟ ابنته الزهراء أم زوجها عليّ؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«فاطمة أحب إليَّ منكَ وأنتَ أعزُ عليّ منها».

وذات يوم دخل الرسول الكريم على ابنته فاطمة فوجدها غاضبة، فسألها: ـ **«أين ابن عمك؟ ولم يقل اين زوجك؟»** وكأنه ﷺ يذكرها بصلة الرحم التي لا تنفصم عراها... فأجابته قائلة: خرج إلى المنزل مغاضباً، ولم تشكه، وكذلك لم يسألها النبي ﷺ عن السبب.

فخرج النبي إلى المسجد فوجده مضطجعاً وقد انحسر رداؤه عن ظهره فأصاب التراب ظهره، فنفض التراب من عليه وقال له ملاطفاً: **«قم أبا تراب، قم أبا تراب»**(١)، وقد ظل هذا اللقب بينه ﷺ وبين عليّ دعابة يناديه به كلما أراد أن يلاطفه ويمازحه.

---

(١) رواه البخاري (٤٤١) ـ مسلم (٢٤٠٩).

ولعل هذا يعطينا الدلالة على حل الخلافات الزوجية بشيء من اللطف والحكمة وعدم الخوض في التفاصيل الدقيقة للحياة الزوجية بين الطرفين.

وقد حدّث الصحابة أن النبي ﷺ رُئي ذات مساء وهو يسعى إلى دار ابنته فاطمة، لا يُخفي ما يظهر عليه من الهم والقلق، فأمضى وقتاً هناك، ثم خرج ووجهه يفيض بشراً فقال قائل من الصحابة: يا رسول الله دخلت وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك!

فأجاب ﷺ: «**وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إليّ**»[(١)].

ومن اللطائف التي تحكى في هذا الصدد أيضاً: أنّ الزهراء ضاقت بما تجد من شدة زوجها وصلابته، فقد كان علياً رضي الله عنه كما رُوي عنه شجاعاً مقداماً، لكنه كان صلباً شديداً وحازماً، فقد خاض من صغره المعارك، ولاقى في سبيل نصرة الدين الكثير..، فقالت له ذات يوم:

والله لأشكونك إلى رسول الله ﷺ...

وخرجت وعليّ في أثرها، حتى جاءت أباها فشكت اليه ما أنكرت من زوجها فتلطف الأب النبيل في ترضيتها وحملها على الرفق بعليّ واحتماله...

وقال عليّ وهو يصحب زوجته إلى بيتها: والله لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٦)، وأورده الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ١٥٩) ولم يعقب عليه.

حادثة الزواج التي لم تتم:

وفي يوم من الأيام خطب النبي ﷺ على المنبر وقال:

«أيها الناس، إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب فلا آذن، ثم لا آذن لهم، وكررها ثلاث إلا أن يريد أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنها بضعة مني، يريبني ما رابها ويؤذيني ما أذاها، وإني أتخوف أن تفتن في دينها»!

وفي رواية أخرى: **«إن فاطمة بضعة مني وأنا أتخوف أن تفتن في دينها وإني لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً ولكن واللهِ لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبداً»**(١).

ثم ذكر ﷺ صهره أي (زوج ابنته) أبا العاص، وكان أبا العاص هو ابن أخت السيدة خديجة، الذي تزوج زينب ابنة الرسول الكبرى، وعندما أجبره قومه أن يطلقها ويزوجوه بأخرى مثلما فعلا أولاد أبي لهب الاثنين وطلقا بنات الرسول الكريمتين رُقية وأم كلثوم، لم يأبه لما قال له قومه وكان لا يزال مشركاً رفض وقال قولته الشهيرة والله ما أطلقها، ولن أتزوج غيرها ولو أتوني بابنة ملك العجم. . .

وبعد أن ذكره ﷺ فأثنى عليه في مصاهرته إياه أحسن ثناء وقال:

«حدثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي، وإني لست أُحرم حلالاً ولا أحل حراماً، ولكن. . . والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبداً».

فقام عليّ إلى رسول الله وقال لا أفعل ما تكرهه.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن المسور بن مخرمة ـ صحيح الجامع (٢١١٥).

وقد يختلط الأمر أحياناً أمام أعيننا فنقول أنّ نبينا الكريم ﷺ قد تزوج أكثر من واحدة!! وقد لا يفهم البعض الحكمة من وراء ذلك..

فقد كان لزواج نبينا محمد صلوات الله عليه وسلامه من كل زوجة من زوجاته مبرراً خاصاً وظروفه الملجئة وبأمر من ربه سبحانه وتعالى، وإلا فما باله قد اكتفى بالسيدة خديجة خمساً وعشرين عاماً ولم يتزوج عليها حتى ماتت وهو في الخمسين من عمره.

ولعلنا نسوق هنا على سبيل المثال لا الحصر زواج النبي الكريم من السيدة «**سودة بنت زمعة**» أولى زوجاته بعد موت السيدة خديجة رضي الله عنها فقد كانت مؤمنة من أوائل المسلمات ولما مات عنها زوجها المسلم وعادت إلى بيت أبيها، ذلك البيت الكافر الذي لم تشرق عليه شمس الإسلام بعد، خشي عليها رسول الله ﷺ أن تعود للكفر تحت ضغط أبيها وأخيها الكافرين! فتزوجها بأمر من ربه وهي تزيد في العمر عن الخمسين عاماً!! وهكذا كان وراء كل زوجة قصة.

ولعل المرء يتعجب للوهلة الأولى كيف فكر ابن العم عليّ في الزواج على ابنة رسول الله ﷺ... ولكن قد يزول هذا العجب عندما نعلم حقيقتين، **الأولى**:

أن العرب قديماً كانوا لا يجدون غضاضة في أن يختاروا العريس لابنتهم فإذا وجدوا من هو كُفؤ لابنتهم سعوا له وزوجوها له، ولعلنا قد ورثنا المثل القائل: «**اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك**»!

ولعل هذا ما حدث مع صهر رسول الله ﷺ، فرفض أن ينكح من حدثوه بشأنها إلا بعد أن يفاتح رسول الله وابنته فالأمر لا يخصه وحده!

أما **الحقيقة الثانية**: فهي أنّ العرب كانوا يعتبرون أنه من العار أن تمكث الفتاة في بيت أبيها حتى أن المثل الدارج حينها انه من سعد الأب ألا تحيض ابنته في بيته ولسنا هنا بصدد تحليل أو إنتقاد تلك البيئة العربية القديمة إلا أننا نحاول أن نقرب الصورة إلى الأذهان.

وقد تكون هذه القصة حدثت في بداية زواج فاطمة وعليّ وربما كان يعتقد البعض أن فاطمة لن تنجب أو شيء من هذا القبيل، وقبل أن يرزقا الولد. . .

أما بعد أن رزقهما الله بولدين وبنتين كان بيتهما رمزاً من رموز السعادة الأُسرية والمحبة الزوجية، وإن كان الأمر لايخلو من بهارات الحياة الزوجية كما يُسميها علماء النفس أي بعض الخلافات التي تحدث بين الحين والآخر. وهذا وارد بين بني البشر جميعاً.

حنانه ورفقه بأولادها ﷺ:

ولا نصف هنا مدى البهجة والسرور التي كانت تملأ أركان البيت النبوي المتواضع والمحبة البالغة التي أولاها الجد العطوف على الأحفاد والحفيدات الأعزاء.

وحدث في إحدى المرات التي زار فيها النبي الكريم ابنته فوجدها وزوجها قد غلبهما النعاس والحسن يبكي يريد طعاماً فلم يهن على الأب الحنون ان يوقظ العزيزين النائمين، بل أسرع إلى «**غنمة**» كانت تقف في ساحة الدار، فحلبها وسقى الحسن من لبنها حتى ارتوى!

ولعل ذلك الحب الأبوي كان له الأثر البعيد في إسعاد فاطمة التي أرهقها الحزن صغيرة، وأنهكها التعب شابة، وأضفى على حياة الفقر

والخشونة التي كانت تعيشها أُنس واشراق. وقد أسعد فاطمة وأرضاها انها كانت أما لَهذين الولدين الأثيرين عند أبيها ﷺ وأنها استطاعت بفضل الله سبحانه وتعالى أن تُهيئ لأبيها الحبيب بعد ان انتقلت من بيته هذة المتعة الطيبة التي يجدها في سبطيه الغاليين ولم يكن عليّ كرم الله وجهه أقل منها سعادة وغبطة، فلقد سعده وأعزه ان تتصل به حياة ابن عمه النبي الكريم هذا الاتصال الوثيق، فيمتزج دمه بدم النبي الزكي، لتخرج من صلبه ذرية سيد العرب، وبنو بنته الزهراء، ويذهب دون الناس جميعاً بمجد الأبوة لسلالة النبي، وآل بيته الكرام.

فتح مكة:

شهدت الزهراء مع أبيها الأيام الأوائل من الإسلام واشتركت صغيرة في الدفاع عنه، وشوهدت يافعة وهي في معركة أُحُد في ميدان القتال تضمد الجرحى وترعى المصابين وتُسقي من أشرف على الموت من الشهداء. وها هي تشهد معه أجمل الأيام في عمر الإسلام؛ ألا وهو فتح مكة، وتحقق حلم الزهراء القديم في العودة إلى مسقط رأسها، ومرتع صباها، وتذكرت أمها الحنون فراحت تزور قبرها وراحت تدور بخيالها في الأمس القريب، وكأن الأيام قد طويت لها، فتذكرت أُخواتها رقية وزينب أم كلثوم فكم كانوا يتمنون أن يعودوا إلى الديار. وتذكرت كيف بدأ الإسلام غريباً، ضعيفاً ثم ما لبثّ أن صار قوياً، مهاباً، وتذكرت كم ضحا رسولنا الكريم ﷺ في سبيل نصرة هذا الدين. . . ومرَّت الأيام كالحلم في مكة، صّلت فيها الزهراء الكثير شكراً لله وإمتناناً لفضله.

العودة الأخيرة للمدينة:

لكن سرعان ما عاد النبي الكريم إلى الديار التي اختارها لنفسه ألا

وهي المدينة المنورة، عاد ﷺ بعد حجة الوداع وهو يعلم أنّه ملاق ربه لكنه اختار ان يُدفن مع الأنصار، الّذين نصروه وأحبوه، فاحبهم كما أحبوه وكما يقول ﷺ: «**ما أحب الأنصار إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، ومن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله**»(١)..

وعادت معه ابنته ومن بقيت له من أهل بيته، فسعدت به وبصحبته وبرؤيته في الصباح والمساء وأُتيح لها أن تسترد بعض قواها فقد تيسر الأمر بعض الشيء على زوجها عليّ فأتى لها بخادم.

موت الحبيب:

ولكن كما لكل شيء ابتداء هناك انتهاء... وما متاع الدنيا إلا قليل فها هي الزهراء تتلقى دعوة أبيها ﷺ في زيارته وهي ملتاعة القلب عليه وإذ بها تجده مريضاً...

فلازمته ليلَاونهاراً تدعو الله مبتهلة أن يشفيه من تلك الوعكة التي ألمت به إلا أن المرض كان يشتد عليه يوماً بعد يوم...

وقد كان رسول الله ﷺ في المرض الذي لحق فيه بالرفيق الأعلى وقبل احتضاره اشتد عليه الألم، وراح يأخذ الماء بيديه ويجعله على رأسه.

فحزنت الغالية عليه وقالت: وا كرب أبتاه.

فقال رسول الله: «**لا كرب على أبيك بعد اليوم**»(٢).

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي ـ صحيح الجامع (٧٦٢٩).

(٢) حديث صحيح ـ رواه الترمذي في الشمائل الحمدية (٣٣٤)، صحيح ابن ماجه (١٣٣٠) قال الألباني حسن صحيح.

ثم كلمها في أذنها فبكت ثم أسر إليها أخرى فضحكت، وهنا تروي لنا الحديث السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كنا أزواج النبي اجتمعنا عنده فلم يغادر منهن واحدة فجاءت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها مشية رسول الله. فلما رآها رحب بها وقال: «**مرحباً بابنتي**» ثم أقعدها عن يمينه.

ثم سارَّها فبكت ثم سارّها الثانية فضحكت، فلما قام قلت لها:

خصك رسول الله بالسر وأنت تبكين، وتضحكين!

فما أخبرتني مم ضحكت ومم بكيت؟

قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله سره.

فلما توفي قلت لها: عزمت عليك أن تخبريني!

قالت: أما الآن فنعم ففي المرة الأولى حدثني قائلاً:

«**إن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل عام مرة وأنه عارضني به في العام مرتين وأني لا أراني إلا قد حضر أجلي فاتقي الله واصبري فنعم السلف لك أنا، وأنت أسرع أهلي بي لحوقاً**» فبكيت، فلما رأى جزعي، قال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة فضحكت**»[1].

فلما مات رسول الله بكته بكاءً شديداً وقالت يومها:

يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه...

---

(١) البخاري (٣٦٢٣) ومسلم (٢٤٥٠) ـ متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها (اللؤلؤ كتاب الفضائل. باب فضائل فاطمة الزهراء رضي الله عنها ١٥٩٣) مع طبقات ابن سعد.

صعدت روح الحبيب إلى بارئها، ولم تحتمل فاطمة ألم الفراق فوقفت وما تقوى قدماها على حملها وأخذت من التراب الذي وُري به جثمان أبيها الشريف وقربته من عينها وهي تبكي تشم رائحة التراب وتنشد:

ماذا عليّ من شم تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

واستعبرت باكية، وبكى الناس معها على فراق النبي الحبيب الذي أرسله ربه رحمة للعالمين. وهنا بكت الحبيبة الغالية كما لم تبك من قبل ولكنه البكاء الوقور الذي لا صوت له والحزن الدفين الذي لايتبعه ما يُغضب الله ولارسوله، وهنا يُعلمنا رسول الله ﷺ:

أنه مهما يكن من القلب والعين، فمن الله والرحمة ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان.

حياة قصيرة بعد موته ﷺ:

بلغت السيدة فاطمة دارها وقدماها لا تقوى على حملها، واستأذن عليها «**أنس بن مالك**» خادم أبيها وراح يسألها الصبر الجميل... قالت له معاتبة:

«**كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله...؟**».

فشرق بدمعه دون أن يجرؤ هو أو سواه على أن يُعاود الحديث في الصبر والعزاء.

لقد شهدت سيدتنا الكريمة العديد والكثير من المصائب الكثيرة والمآسي الأليمة منذ نعومة أظافرها.

فلقد شهدت موت أمها السيدة خديجة ﵂، وعاصرت موت أخواتها الثلاث زينب ورُّقية وأم كلثوم أمام عينيها وهن يحتضرن، وعاشت حياة شديدة التقشف وكانت ﵂ تجلس بالأيام لا تأكل، وتُحيط بحياتها الخشونة من كل جانب، ثم جاءتها الطامة الكبرى بموت أبيها، فلم يكن مجرد أب عادي بل كان الأهل والسند.

وقد عافت السيدة فاطمة الدنيا من بعد موت أبيها، فلا نرى الابتسامة تعرف إلى ثغرها الجميل طريق، ولكن كعادتها دائماً إذا اشتد عليها الأمر تُكثر من السجود والمناجاة لربها، والدعاء له بأن تلحق بأبيها وان تكون أول أهله لحوقاً به كما وعدها، لكنها ما تمنت الموت بل كانت إلى آخر وقتها، عابدة زاهدة، أم وزوجة، وهي ﵂ ما تحملت هذه المحن والمصائب إلا لموعدة وعدها إياها رب العالمين هي وكل من تصبر صبرها وتتقي تقواها، أليس ربنا القائل في كتابه الكريم: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وحسبها أنها على هذا العناء الطويل كافأها ربها بأن جعلها سيدة نساء هذا العالم وفي الآخرة هي من سيدات نساء أهل الجنة. . .

ولم يُقصِر جنته سبحانه وتعالى على أحد فباب توبته باباً واسعاً لا يغلق ليلاً أو نهاراً، وهذه النماذج التي تشرق بها صفحات هذا الكتاب، لم نكتب عنها لتمجيدها، وإحاطتها بهالة من القدسية ونعتبرها مجرد تاريخ نذكره للتسلية أو الإستئناس . . .

بل نكتب عنها لنتخذها قدوتنا ونحاول ان نحاكيهاونقلدها ما استطعناونأخذ من قصصهم العبرة والموعظة الحسنة ونستفيد منها في مشكلاتنا الحياتية ونكمل منها حياتنا الإيمانية.

وقد وعد سبحانه وتعالى عباده المتقين بالنجاه والفوز وجعل شرط واحد لهذا الفوز ألا وهو التقوى. . .

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

موقفها من أبي بكر بعد أن مات أبيها:

قبل ان نسرد هذا الموقف نود أن نقول أن النبي الكريم ﷺ مات ولم يُدوْن شيء من السُنَّة النبويه الشريفة، بل كان التركيز الأكبر على تدوين القرآن الكريم..، لذلك لانجد غرابة في أن يحفظ أحد الصحابة حديثاً نبوياً شريفاً قد لا يعرفه صحابي آخر، ولذلك كان أصحاب النبي ﷺ يتناوبون في الجلوس معه يتعلمون منه ثم يبلغون ما تعلموه لبعضهم البعض. . .

والموقف الذي حدث مع سيدتنا فاطمة له علاقة بهذا الموضوع. . .

فقد ذهبت السيدة فاطمة إلى أبي بكر الصديق بعد وفاة أبيها تسأله عن ميراث لها من رسول الله ﷺ، فقال لها أبي بكر: «**يا حبيبة رسول الله والله إن قرابة رسول الله أحب إليّ من قرابتي وإنك أحب إلى من عائشة ابنتي ولوددت يوم مات أبوك أني مت ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك واعرف فضلك وشرفك وامنعك حقك وميراثك من رسول الله؟ كلا: إني سمعت أباك يقول: «لا نُورث ما تركناه فهو صدقة»**»[1].

وقد مات ﷺ ودرعه مرهونة لرجل يهودي. . .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤٢٤٠) ـ مسلم (١٧٥٩).

إن موقف السيدة فاطمة بعد ذلك سواء إن غضبت من أبي بكر أو غفرت يذكرنا بموقفها عندما طلبت من رسول الله خادماً فلم يعطها فلعلها غضبت أيضاً لكنها أطاعت أبيها وهي ﵂ سمعت ذلك من أبي بكر ولم تكن لتعرفه من أبيها لأن الأحاديث النبوية الشريفة لم تكن دونت بعد، وهذا الخلاف العادي بين السيدة فاطمة وأبو بكر الصديق هو خلاف وارد ولكنه لا يفسد للود قضية كما نقول وينبغي ألا يأخذ منا أكبر من حجمه وقد خاض في هذه القضية كثيرون بنوا عليها مواقف غير عادلة لكل من الطرفين، إلا إننا لا نخوض فيه فحسبنا أن لكل من الزهراء والصديق فضلهما ومكانتهما عند رب العالمين.

وفاتها ﵂ وأرضاها:

شعرت السيدة فاطمة ﵂ بقرب نهايتها قبل أن تموت بيومين فابتاعت ملابس جديدة ولم تلبسها. وفي اليوم التالي أرسلت في طلب صديقتها «أسماء بنت عميس» وأخبرتها عما يجول في نفسها وتركتها وذهبت واغتسلت كأحسن ما تكون ثم قالت لصديقتها: يا أسماء إني قد استقبحت ما يُصنع بالنساء إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها، فقالت أسماء بنت عميس: يا بنت رسول الله ألا أريكِ شيئا رأيته بأرض الحبشة؟ قالت فاطمة بلى، فدعت أسماء بنت عميس بجرائد رطبة وهي من جريدة النخل، فحنتها ثم طرحت عليها ثوباً فقالت فاطمة ما أحسن هذا وأجمله لا تعرف به المرأة من الرجال[1]..

وصنعا معاً ما يشبه الهودج.

---

(١) ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (٥/ ٢٢٤) وذكر نحوه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٢) والحافظ في الإصابة (٨/ ١٥٧).

وعلم أبو بكر بمرض فاطمة فاستأذن عليّ في أن يدخل ويعودها فسمحت له فدخل عليها أبو بكر وكلمها، فرضيت عنه فخرج أبو بكر وعلم أنها الوفاة.

فتقدمت السيدة فاطمة ونامت في فراشها مستقبلة القبلة، وسلمت على أولادها وقبلتهم قبلة الوداع، ثم قالت لصاحبتها إني مقبوضة الآن وقد اغتسلت فلا يكشفني أحد وادفنوني ليلاً وماتت ﵂ وهي ابنة ٢٨ عاماً ويقال ٢٩ ودفنت في البقيع بالمدينة وكانت أول امرأة يغطى نعشها في الإسلام.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: **«عَاشَتْ فَاطِمَةُ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، وَدُفِنَتْ لَيْلاً. وَصَلَّى عَلَيْهَا العَبَّاسُ، وَنَزَلَ فِي حُفْرَتِهَا هُوَ وَعَلِيٌّ وَالفَضْلُ»**(١).

وهكذا عاشت سيدة نساء عصرها حياة قصيرة لم تكمل عقدها الثالث، ومع قصر هذه السنوات إلا أنها صبرت فيها أيما صبر، والصبر كما قال الرسول ﷺ بالنسبة للإيمان، بمثابة الرأس من الجسد، فلا إيمان بغير صبر، ولا فائدة من صبر بلا إيمان. ماتت ﵂ بعد أن وعت كتاب ربها وطبقت ما فيه وحفظته عن ظهر غيب... وماتت بعد أن وعت وحفظت وطبقت سُنة أبيها ﷺ، وعُرِف عنها أنها روت عن أبيها وروى عنها ابنها الحسن وعائشة وأم سلمة وأنس وغيرهم. وروايتها في الكتب الستة(٢).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩٨٩ ـ ٢٢/٩٩٦) ـ وأورده الهيثم في مجمع الزوائد (١٥٢٢٦/٩) وقال رواه الطبراني بأسانيد (٣٣٤).

(٢) انظر الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١٩/٢).

عاشت رضي الله عنها سنوات قليلة لكنها مليئة بالمآثر والتقوى والزهد، حتى قبل موتها لم يكن شيء ليشغل بالها غير تسترها ودفنها ليلاً حتى لايراها أحد، لقد تجهزت السيدة فاطمة للحظة لقاء ربها طويلاً فلم تفزع من داعي الموت لها على العكس كانت فرحة بلقاء ربها مستبشرة بجنته فقد تحملت الكثير من أجل الوصول إليها فرضيّ الله عنها وأرضاها وجمعنا بها في جنته إنه نعم المجيب.

شريفة قومها وسيدة نساء عصرها

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

سيدات نساء

خديجة بنت خويلد

إن لكل عصر رجاله ونساءه ولله في خلقه شؤون يبديها، وله اجتباء واصطفاء من بين ما خلق فبارك بقعاً من الأرض وقطعاً منها وحرم أشهراً واصطفى رسلاً وهنا يقول رسول الله ﷺ:

«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم فأنا خيار من خيار من خيار»(١).

ثم يقول لنا الرسول الكريم:

«إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين»(٢).

وقد اختار من بين أصحابه العشرة المبشرين بالجنة واختار من العشرة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، ثم بعد العشرة أهل بدر ثم أهل أُحد ثم أهل بيعة الرضوان ثم قال ﷺ:

«أنتم خير أهل الأرض»(٣).

واختار الله سبحانه وتعالى أهل بيت رسول الله وطهرهم تطهيراً

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٧٨٢).

(٢) حديث ضعيف ـ السلسلة الضعيفة (٦١٢٣).

(٣) «أنتم خير أهل الأرض» رواه البخاري في صحيحه (٤١٤٥).

فيقول الله في كتابه الكريم بسورة الأحزاب الآية (٣٣): ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾.

واختار الله نساء النبي على نساء العالمين فيقول سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب الآية ٣٢: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

كما اختار الله سبحانه وتعالى من بين نساء النبي سيدتنا وأمنا الطاهرة العفيفة خديجة بنت خويلد.

إذ قال رسول الله ﷺ

«أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[(١)].

فالسيدة خديجة بنت خويلد هي أول الزوجات وأكمل أمهات المؤمنين وأكثرهن اقتراناً به وأكثرهن تضحية لأجله، وأكثر من عاشت معه من زوجاته. وأبسط ما يقوله المرء عن سيدتنا خديجة انها أصل الشرف صوب الكرم وطيب العنصر وعلو النسب، إنها الكريمة الشريفة الطاهرة العفيفة الطيبة الحنون.

صلة نسب وقرابة:

وربما لا يعرف البعض أن هناك صلة قربى من ثلاث جهات تجمع بين السيدة خديجة رضي الله عنها، والرسول ﷺ فهي الحسيبة النسيبة (أم هشام) كما كان يسميها جيرانها أهل مكة المكرمة[(٢)].

---

(١) سيدة في قلب المصطفى ـ سبق تخريجه في الصفحة (١٣) ـ صحيح الجامع (١١٣٥).

(٢) المرجع السابق.

فالسيدة خديجة يجمعها مع رسول الله النسب في جده «**قُصيٍّ**» من جهة أبيها وفي «**لؤيٍّ**» من جهة أمها، وفي «**عبد مناف بن قصي**» من جهة جدتها لأمها.

من أسمائها وألقابها:

كانت السيدة خديجة **سيدة نساء عصرها**، فقد كانت من خيرة النساء في الجاهلية والإسلام، وقد كانت من أفضل بنات جيلها إن صح القول... فعُرفت عنها الحكمة والكياسة منذ صغر سنها...

ولُقبت **بالعفيفة** لأنها كانت تضع الحجاب على رأسها وتستر سائر بدنها بالكامل بما يعرف لدينا الآن بالعباءة، ولم تكن تظهر شيئاً من سائر بدنها...

على الرغم من أنَّ الإسلام لم يأت بعد ولكنها كانت على دين الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، وكانت حشمتها هذه هبة من عند الله شأنها في ذلك شأن كل العفيفات اللاتي اصطفاهن الله سبحانه وتعالى وأكرمهن بالحجاب منذ بدء الخليقة كالسيدة سارة زوج إبراهيم عليه السلام، والسيدة مريم وغيرهن من الصالحات والمؤمنات على مر العصور.

والحجاب والتستر هو صفة جعلها الله في كل الشرائع، وليس أدلنا على ذلك أن أهل الكتاب من اليهود أو النصارى يرتدون غطاء الرأس عندما يدخلون إلى أماكن العبادة من معبد أو كنيسة...

وسُميت **السيدة خديجة أيضاً بالطاهرة** لأنها رغم مالها الكثير الذي أتاها الله وعلى كثرته، وجمالها الذي حباها الله به، وعلى درجته، إلا أنها لم تستغل مالها ولا جمالها في تجارتها بل كانت لا تخالط الرجال

ولا تصافحهم إنما كانت تبعث خادميها في المضاربة بمالها في التجارة لمن تسمع عنه حسن الخلق، ولذلك لم يكن من المصادفة أن يكافئها الله على إيمانها وعفتها وطهارتها بأن زوجها خير خلقه من عباده وأقربهم منه منزلة.

أم هشام...

وقد أطلق جيران السيدة خديجة عليها في مكة لقب أم هشام وهو إن دلَّ على شيء انما يدل على محبة جيرانها لها ووصفها بالكرم...

ولقد كانت هذه ألقابها قبل أن تقترن برسول الله ﷺ... أما ألقابها بعد الزواج منه كثيرة؛ فمنها **أم المؤمنين الأولى، وزيرة الإسلام الأولى، أم القاسم والطيب، أم بناته الكرام، زينب، ورقية، وأم كلثوم وفاطمة**... رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين.

والسيدة خديجة هي أفضل زوجات النبي على الإطلاق، وقد ظل الرسول يحبها ويحيي ذكرى حبها في قلبه حتى بعد وفاتها حتى انه كان يقول:

«إني لأحب حبيبها».

وكان إذا ذبح ذبيحة قسم لها جزءاً موفوراً وقال:

«أرسلوا هذا إلى أصدقاء خديجة».

وكان إذا سمع طرقاً على الباب يعرف سَمْتِه يقول اللهم هالة.. اللهم هالة.

وهالة هي أخت السيدة خديجة.

فمن هذه السيدة التي حظيت بكل هذا الحب من سيد الخلق أجمعين، ومن التي قال عنها رسولنا الكريم:

«**إني قد رُزقت حبها**»[١].

انها السيدة «**خديجة بنت خويلد ابن أسد بن عبد العزى أخو عبد مناف**». وأمها السيدة فاطمة بنت زائدة، وجدتها هي السيدة هالة بنت عبد مناف الجد الثالث للنبي ﷺ.

وأبو السيدة خديجة رضي الله عنها «**خويلد بن أسد**» كان في ذروة قريش نسباً وشرفاً ومكانة وما يذكر له انه واجه آخر التباعية ملوك اليمن وحال بينه وبين ما أراده من أخذ الحجر الأسود معه إلى اليمن.

وهو من أقران عبد المطلب جد الرسول، ويذكر المؤرخون انه كان ضمن الوفد الذي ذهب بقيادة عبدالمطلب إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن لانتصاره على الحبشة وطردهم من بلاده.

أما أم السيدة خديجة فهي السيدة فاطمة بنت زائدة وينتهي نسبها إلى عامر بن لؤي وقد كانت امرأة يشهد لها بالجمال وعزة النسب ورجاحة العقل أما جدتها لأمها فهي السيدة هالة بنت عبد مناف التي يصل نسبها إلى لؤي بن غالب، وقد كانت ذات شأن في قومها حسيبة نسيبة من أشراف العرب وأسماهم عرقاً وكلا أبويها من أعرق البيوت وأكثرهم كرماً وخلقاً حتى قبل ظهور الإسلام.

ويقول الحافظ بن حجر:

إن السيدة خديجة من أقرب نسائه اليه في النسب ولم يتزوج غيرها

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٣٥).

من ذرية قصي إلا أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان.

وأخت السيدة خديجة هي هالة بنت خويلد التي عاشت بعد أختها زمناً وكانت تِوَدْ رسول الله بعد وفاة أختها وتزوره، وكان سيدنا محمد ﷺ كلما اشتاق إلى رؤية السيدة خديجة تمنى أن تأتيه أختها هالة وكانت شبيهة الصوت بأختها فيقول الرسول متمنياً أن يكون طارق الباب هو أختها فيقول اللهم هالة.. اللهم هالة.

وابن أخيها **حكيم بن خزام بن خويلد، أسلم وحَسُنَ إسلامه وكان صديقاً للنبي ﷺ قبل البعثة وقد كان عالماً بالانساب والأخبار.. ونال شرف الصحبة والرواية عن النبي ﷺ وحصل على الرفادة لبيت الله الحرام.**

أما عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، كان قد كره عبادة الأصنام وطلب الدين في الآفاق وقرأ الكتب وأصبح مؤمناً عابداً لله الواحد وهو الذي بشر السيدة خديجة بنبوة زوجها وكان يقول لها: ما آراه إلا نبي هذه الأمة الذي بَشَرَ به عيسى وموسى.

وابن أخيها الثاني «**الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد حواري رسول الله ﷺ وأمه عمة النبي صفية بنت عبد المطلب أي ان عمة النبي صفية** رضي الله عنها **كانت متزوجة بأخي السيدة خديجة**».

والزبير بن العوام هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى في وصية عمر بن الخطاب وعنه يقول النبي ﷺ: «**إن لكل نبي حوارياً وان حواريِّ الزبير**»(١).

(١) رواه البخاري (٢٨٤٦).

نور يسطع على كل شيء:

سيدتنا وأُمنا السيدة خديجة على هذا النسب كانت راجحة العقل كاملة الوصف حتى في أيام صباها فلم تكن فتاة متسرعة ولا غضوبة ولا مدللة إلى الحد الزائد بل كانت فتاة راجحة العقل هادئة الطبع جميلة الشكل طيبة القلب وكريمة اليد.

وكان لنشأتها في بيئة ثرية آثاراً طيبة في نفسها وليس العكس فهي لم تتكبر بثراء أُسرتها ولم تأخذها العصبية والغرور لعلو نسب قومها بل على العكس كانت شديدة التواضع شديدة العطف على الفقراء ولا ترد من يأتيها لصدقة أبداً.

وكان من عادة السيدة خديجة التصدق على الفقراء والدعوة لهم فهي إن همت بإعطاء أحد الفقراء صدقة فدعا لها بادرته هي بالدعوة وتقول دعوة بدعوة والأجر من عند الله.. وهذا عكس ما نراه الآن من أن أحدنا يعطي صدقة لأحد الفقراء ويطلب منه أن يدعو له وربما يتجاوز ذلك، إنما السيدة خديجة عُرفت بفطرتها الإيمانية ان طلب تحقيق المنى والأماني لا تأتي من العباد ولكن تأتي من رب العباد.

وقد رأت السيدة خديجة رؤية عظيمة في مقتبل شبابها أثرت فيها أيما أثر وملأت نفسها الطاهرة بالتفاؤل والخير والتمسك بعبادة الله، فهي لم تسجد لصنم ولم تعبد غير الله الواحد وكانت على الحنيفية التي تمسك بها بعض العقلاء في زمن تفشى فيه وباء الشرك.

فقد رأت السيدة خديجة في منامها أن الشمس تهبط من السماء وتدخل دارها وتسطع على كل شيء فيه فغمرت كل البيت بنور عظيم يبهر الأبصار وأضاء هذا النور كل شيء حتى أصبح بيتها نوراً يتلألأ.

وأرادت أن تستوضح معنى لرؤياها هذه فذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل للتحقق من هذه الرؤية، فإذا بوجهه الصالح يتهلل ويبشرها:

«البشرى البشرى يا ابنة العم، فإن هذه الرؤية تعني أن الله سيكرمك بنور يدخل إلى بيتك وأحسبه والله أعلم نور النبوة.. الله أكبر يا خديجة هذه بشرى عظيمة».

وعندما سألته السيدة خديجة ماذا تعني بنور النبوة؟ قال لها: إنه نور من نور الله ورسالته إلى الأرض وأحسب أنه نور خاتم النبيين يا خديجة.

وهكذا عاشت السيدة خديجة على هذا الأمل تسترجع تفاصيل الرؤية وتتمنى من ربها أن تتحقق، وكثر خُطّاب السيدة خديجة والمتقدمون لها، فلم تجد أمامها بُداً من الزواج...

زواج خديجة الفتاة:

تزوجت خديجة الفتاة إلى سيد من سادات قريش اسمه (زرارة بن النباش التميمي) وكان صاحب مال وتجارة، وعاشت معه فترة قصيرة ورزقت منه بولدين هما «**هند بن زرارة**» و«**هالة بن زرارة**» وكانت أسماء هند وهالة تصلح للذكور كما للإناث في ذلك الوقت.

ثم توفي زوج السيدة خديجة تاركاً لها ثروة ضخمة والولدين.. وكان من عادة العرب ألا تجلس إمرأة من دون زواج، خاصة إذا كانت السيدة خديجة، فتقدّم لها الخطاب مرة أخرى فتزوجت «**عتيق بن عائذ المخزومي**» الذي توفي عنها بعد فترة قصيرة أيضاً، ولكن بعد أن أنجبت منه بنتاً سمتها هند كذلك.

وعاشت السيدة خديجة «**أيما**» أي أرملة مع ولديها من الزوج الأول هند وهالة ابنا زرارة وبنتها من الزوج الثاني هند بنت عتيق.

وكانت السيدة خديجة تضارب بأموالها وترسل الرجال في تجارتها إلى الشام وإلى أماكن أخرى وقد سمعت عن أمانته ﷺ، وسمعت عنه أقوالاً متناثرة فجاشت في نفسها الطاهرة تفاصيل رؤيا النور وعرفت أنه قد آن الأوان لأن يدخل النور إلى بيتها لتحتضن هذا النور ليشع على الأمة إيماناً وتوحيداً وعبادة لرب العالمين الواحد الأحد.. فسعت وراء حدسها وداخلها يقين يؤكد أن نور النبوة بات قريب منها كما بشرها ابن عمها ورقة بن نوفل...

الفوز بلقب الأولى:

ولتحقق بذلك مكانة عالية بعد أن فازت بلقب الأولى...

فكما يقول د. محمد عبده يماني، في كتابه الرائع «**سيدة في قلب المصطفى**»:

إنها أم المؤمنين الأولى...

وزوج الحبيب الأولى...

والمسلمة الأولى...

والصديقة الأولى...

والمجاهدة الأولى.. والوزيرة الأولى التي هيأتها العناية الإلهية له ﷺ، حقاً فقد كانت أول من وقف مع زوجها الحبيب، وأول من صدقه، وأول من شهد له، وأول من تزوجه، وأول من سجد بعده لله في عصرهما، ولهذا كله كانت السيدة خديجة ولم يكن أحد غيرها.

اصطفاء واجتباء:

والسيدة خديجة هي سيدة أكرمها الله، وكرمها، واختارها لتكون بجوار سيدنا محمد ﷺ، في أهم مرحلة من حياته، انها اختيار الله، هو علّمها وفضّلها وأكرمها بهذا الفضل، اجتباهاواصطفاها، فكانت زوج خاتم النبيين، وأم المؤمنين، وأم الذرية الطاهرين.

واختيار الله سبحانه وتعالى لهذه السيدة العظيمة لم يأت إلا لأنها كانت أهل للاختيار، فقد كانت سيدة نساء عصرها من قبل ان يُبعث سيدنا محمد ﷺ، وكانت رضي الله عنها ذات مبدأ ودين في عصر إنجرف فيه الجميع إلى هاوية الشرك، والانفلات، لكنها رضي الله عنها لم تكن إمعة تُحسن إذا أحسن الناس وتُسيء إذا أساؤا بل كانت ثابتة على الحق حتى لو لم يبقى أحد غيرها على الإيمان. . .

وكانت السيدة خديجة أيمّا أي أرملة، كانت تربي أولادها من زوجين سابقين ولدين وابنة، وكانت لديها أموالاً كثيرة أرادت أن تنميها بالتجارة فكانت رضي الله عنها ترسل الرجال وتضارب في الأموال، وكانت تدقق وتمحص، وتختار من تثق بأمانته وترسله في تجارتها حتى تضمن سلامة أموالها، وعظيم ربحها، وكانت السيدة خديجة تسمع عن أمانة سيدنا محمد وما يقوله الناس عنه وعن صدقه وحسن خلقه.

وفي بيئة صحراوية مثل البيئة الجاهلية كانت الأخبار سريعاً ما تتداول، فبلغ هذا الحديث مسامع السيدة خديجة، فأرسلت هي إليه.

ويحدثنا المؤرخون أنها لمّا قابلته كان مما قالته له:

«انه دعاني إلى البعث إليك ما بلغني من صدق حديثكَ وعظم

أمانتكَ، وكرم أخلاقك»، وعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره من التجار.

وقَبِلَ رسول الله ﷺ عرضها وخرج في مالها إلى بصرى بالشام وأرسلت معه غلامها ميسرة، وأوصته أن يقوم على خدمته، وألا يخالف له أمراً وأن يرصد لها أحواله.

أرباح مضاعفة:

نفذ ميسرة غلام السيدة خديجة الوصية التي أوصتها له بحذافيرها وراح يتتبع اخبار سيدنا محمد ﷺ وما صاحبها من معجزات، ولما انتهت الرحلة وباعا بضاعتهما، كانت الأرباح التي عادا بها ضعف ما كانت تربح من قبل، واشتريا ما يعودان به بأربح مما كان يشتري عما كان...

وعادا سالمين غانمين، وتقدم ميسرة عند دخولهما مكة ليكون بشيراً بسلامة العودة، ووفرة الربح، ولما جاء ميسرة للسيدة خديجة حدثها بما رأى وقال لها: «**رأيت الغمامة تظلله أينما ذهب.. فإذا سار سارت معه وإذا جلس ثبتت فوق رأسه لا تتحرك، ورأيت شجرة جلس تحتها، فمالت عليه بأغصانها تظلله وكان مجلسنا قريباً من صومعة راهب تحكي قصص السيرة أنه الراهب** «**نسطوراً**» فلما ناداني الراهب سألني عنه قائلاً: «**من هذا الذي يجلس تحت الشجرة؟**».

فقلت له: انه محمد بن عبد الله.. فتى من أهل الحرم.

فقال الراهب: انه والله نبي هذه الأمة، وهذه الشجرة ما جلس تحتها إلا نبي![1]

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٢٩).

وبين دهشة السيدة خديجة وصاحباتها من هذا الحديث، وصل الصادق الأمين فسلم حيياً وأدى ما عنده من أموال وأرباح متضاعفة وانصرف.. بعد ان أحيا في قلب السيدة خديجة حلماً قديماً وأظهر نوراً كثيراً كانت قد رأته من قبل في أحلامها.

وتساءلت في نفسها أحقاً هي معجزة الأيام قد آن أوانها.. فيا فرحة العمر لو تحقق ذلك الحلم، وعاشت عروساً هانئة لنبي كريم.

الحلم يتحقق:

وكانت السيدة خديجة تتمنى لو تصبح لهذا الصادق الأمين زوجاً ومعيناً ووزيراً صادقاً تهبه عمرها وحبها، ومالها، هانئة بقربه ورضاه، وتحظى به زوجاً ومعلماً وحبيباً، وتشرف به قريناً فريداً مرغوباً.

ولكن على الرغم من كل هذا التقدير الذي كانت تكنه السيدة خديجة لسيدنا محمد إلا أنها أبت ان تفاتحه أو تفصح له وهنا يكمن درس العفة والكرامة من هذه السيدة المصانة التي لم تفاتح من كانت على يقين من انه نبي هذه الأمة وان خلقه يفضل كل خلق وانه ليس ككل البشر إلا انها لم تفعل.

وبينما كانت السيدة خديجة كذلك دخلت عليها صديقتها «**نفيسة بنت منية**» التي بدورها عرفت ما يدور في خلد صديقتها بعد ان حكت لها فقالت لها «**تأذنين وأنا أتدبر الأمر**».

فُسرت خديجة لذلك وقالت في فرح: «**افعلي يا نفيسة ما تستطيعين**».

فراحت الصديقة الوفية تفاتح الصادق الأمين وتقول له: ما يمنعك أن تتزوج يا محمد!

فقال لها: ما بيدي ما أتزوج به!

قالت: فإن كفيت ذلك، ودعيت إلى الجمال، والمال، والشرف، والكفاءة ألا تجيب.

قال فمن! قالت خديجة، قال: وكيف لي ذلك! فأجابته نفيسة: عليّ وأنا افعل ذلك.

الزواج الميمون:

وتحكي لنا كتب السيرة ان النبي ﷺ لمّا علم بذلك استأذن عمه أبا طالب في أن يتوجه لخديجة.. فأذن له.. وبعث بعده جارية له يقال لها نبعة فقال لها انظري ما تقول له خديجة.. فخرجت خلفه فلما جاء ﷺ إلى خديجة أجلسته وأخذت تكلمه، ثم قالت: بأبي انت وأمى، والله ما افعل هذا الشيء، لكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي يبعث، فإن تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي، وادع الإله الذي سيبعثك لي.

فقال سيدنا محمد ﷺ والله لئن كنت انا هو لقد اصطنعتي عندي ما لا أضيعه أبداً، وان يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيمك أبداً.

وهكذا تم الاتفاق بين العفيفة الطاهرة والصادق الأمين ذلك الاتفاق الذي لم يحنث به أحد الطرفين بل ظلا عاكفين على نجاحه فلم تتغير النفوس ولم تخن الأعين، وتم الزواج الميمون بعد أن أحضر النبي ﷺ أعمامه أبي طالب والعباس وحمزة فخطبوها من عمها حيث كان

أبوها قد توفي وقال عم النبي في خطبة طويلة بدأها قائلاً:

«أما بعد فإن محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش، إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قل، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة...

ثم ختمها قائلاً:

«اشهدوا عليّ معاشر قريش اني قد أنكحت محمد بن عبد اللّه خديجة بنت خويلد».

فأثنى عليه عمها **«عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وأنكحها منه على صداق قدره عشرون بكرة»**.

ولمَّا انتهى العقد، نُحرت الذبائح ودقت الدفوف، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء، فإذا بينهم **«السيدة حليمة السعدية»** قد جائت من بادية بني سعد لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته، ثم لتعود في الغداة ومعها أربعون رأساً من الأغنام هبةً من العروس الكريمة لتلك السيدة التي أرضعت **«محمداً»** زوجها الحبيب...

السند والمال والأهل:

عاشت السيدة خديجة حياة هنيئة رغدة في جوار رسول الله ﷺ قبل ان يوحي اليه، امتدت فيها السعادة إلى أكثر من عشرين عاماً، نَعِمَا فيها بالألفة والاستقرار والسعادة، وقد أتم الله نعمته على الزوجين؛ فرزقهما البنين والبنات، القاسم وعبد الله، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وقد وجد النبي ﷺ في عشرته لزوجته خديجة؛ المحبة التي كان يبحث عنها والأمان والطمأنينة التي إفتقدها ﷺ في طفولته اليتيمة وهو ينتقل فيها من

بيته إلى بيت جده عبد المطلب بعد ان ماتت أمه آمنة، ثم منتقلاً مرة أخرى إلى بيت عمه أبي طالب... إلى أن منّ الله عليه؛ وأصبح زوجاً وأباً، كما وجدت فيه الزوجة الحنون صفات لم تكن لتعهدها في بشر... فهاهو يرعى أولادها من قبله وها هو يرعى غلمانها، وها هو يعيش مخلصاً لها، يحيطها بمحبته ورعايته، ويحيط كل شيء يخصها بتلك المحبة الخالصة ...

وها هي تراه أمامها يسعى للاختلاء للعبادة، فإذ بها تعينه على عبادة ربه؛ وتهيؤ البيت لنبوته التي كانت على يقين أنها آتيه له لا محالة...

ولما أتته النبوة ﷺ... تحملت في سبيل الدعوة الأذى والآلام والحرمان فوقفت إلى جانبه وصبرت معه وضحت في سبيله وما إن نزل الوحي على رسول الله حتى كانت أول من صَدَقَ وآزر، وكانت له السند والمال والأهل...

ووقفت مع سيدنا محمد ﷺ تشد من أزره وتعينه وتبذل كل غال ونفيس في سبيل راحته.

وعندما كان يذهب إلى غار حراء قبل نزول الوحي ويظل متعبداً لأيام طوال كانت تسأل عنه وترسل رسلها ليطمئنوها عليه وكانت تحمل اليه الطعام والشراب لا تكل ولا تمل ثم تصعد بنفسها الى الجبل الذي يبلغ ارتفاعه ٨٦٦ متراً فوق سطح البحر...!! ويقع على مسافة ليست بالقريبة، كل ذلك لتطمئن عليه وتعينه على ما هو فيه عندما كانت تفعل ذلك كانت تفعله فرحة سعيدة مؤمنة ومتبصرة بعظمة الدور الذي ينتظر زوجها.

ولا يخفى علينا من أمر هذه الزوجة الكاملة العاقلة المعطاءة موقفها المساند المطمئن عندما جاءها سيدنا محمد ﷺ بعد أن أتاه الوحي خائفاً لا يصدق ما قد حدث...

قالت له بثبات: «**والله إنك لنبي هذه الأُمة**» ثم قالت له كلمات يقول عنها العالم الكبير زغلول النجار: «**أنها كانت سبباً في دخول أحد أساتذة الجامعة الأجانب للدين الإسلامي بعد أن سمع هذه الكلمات التي قالتها زوجة لزوجها بعد أن عاشا معاً عمراً طويلاً تعدى الخمسة عشر عاماً فهو ﷺ لم يتغير ولم يتبدل خلقه بل ثبت على ما كان عليه من حسن الخلق فعلم هذا الأستاذ الجامعي بفطرته السليمة أن هذه الزوجة لا تقول عن زوجها إلا الحق وأنه حقاً رسول الله وقد قالت له فيها:**

«**كلّا والله ما يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق**»[١].

وكان رسول الله ﷺ يُحَدِثْ عن خديجة فيقول:

«**ما رأيت من زوجة لزوج خير من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلاَّ وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا**».

فكانت تهتم بشأنه وتعد له الطعام بنفسها على الرغم من وجود الخادمين، وكانت تكرم ضيفه، وترحب بأهله حتى عندما أخذ سيدنا محمد ﷺ ابن عمه «**علي ابن أبي طالب**» ليربيه مع أولاده رحبت به وكانت تعامله كأحد أبنائها.

(١) البخاري (٣) ـ مسلم (١٦٠).

عطاء لاقى أهله:

ولا شك أن عطاء السيدة خديجة وحسن خلقها مع زوجها هو عطاء لاقى أهله فقد ظل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على عهدها وعلى حبها حتى بعد أن ماتت وظل وفياً لها يثني عليها ويحيي ذكراها.

عاشت السيدة خديجة مع سيدنا محمد خمسة وعشرين عاماً منها حوالى خمسة عشر عاماً قبل أن يبعثه الله نبياً، وحوالي عشرة أعوام بعد البعث، وقد قيلت في هذه الفترة غير ذلك...

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أمهاتنا جميعاً:

«ما غِرت على أحد غيرتي على خديجة ولم أرها، وذلك لكثرة ذكر النبي ﷺ لها، فقلما كان يخرج من عندي إلا ويذكرها ويُحسن الثناء عليها فذكرها في يوم من الأيام فأدركتني الغيرة فقلت: «هل كانت إلا عجوزاً! فقد أبدلك الله خيراً منها..

فغضب النبي غضباً شديداً وقال:

«لا والله ما أبدلني خيرا منها قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها اذ حرمني الناس، ورزقني الله تبارك وتعالى منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء»(١). وخرج مغضباً، فقلت في نفسي: والله لا أذكرها بسيئة أبداً.

أولادها رضي الله عنها:

وقد أنجبت السيدة خديجة من سيدنا محمد ﷺ ستة أولاد، ولدان وأربع بنات.

---

(١) حديث حسن. رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٧).

وهؤلاء هم ذرية المصطفى ﷺ إنهم النطف الطاهرة والأولاد البررة أما الأولاد فهم عبد اللّٰه (وهو الطاهر، وهو الطيب) سمي بالطاهر والطيب لأنه وُلِدَ بعد النبوة وتوفي عبد اللّٰه وهو صغير.

أما القاسم فقد بلغ مرحلة المشي ثم توفي فحزنت عليه السيدة خديجة حزناً شديداً وكان رسول الله يُكنَّى به فكان يسمى: «**أبا القاسم**».

أما بناته فهن زينب، ورقية، وأم كلثوم، وقرة عين أبيها فاطمة. كلهن من خديجة وكلهن أدركن الاسلام وهاجرن إلى المدينة وهاجرت رقية رضي الله عنها الهجرتين هجرة من مكة إلى الحبشة مع زوجها عثمان، ولما عادت هاجرت مرة أخرى من مكة إلى المدينة.

أمومة جارفة لسيدة بيت النبوة:

السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها كانت تتميز بشخصيتها الحنونة وبعطائها اللامحدود، وفوق كل ذلك أمومتها الجارفة، وكانت رغم إختبار الله سبحانه وتعالى لها بموت أولادها الذكور، إلا أننا نجدها عطوفة على كل من حولها؛ ذكور، وبنات، فهاهى ترعى «**علي بن أبي طالب**» الطفل الصغير بعد أن طلب الرسول ﷺ من عمه أبي طالب أن يُعطيه إياه ليربيه، ليخفف عن عاتقه، ويرد له الجميل، يوم أن كفله بعد أن مات جده، وها هي ترعى ابن أخيها «**الزبير بن العوام بن خويلد**» عندما مات أبوه وهو في الثانية من عمره، ونراها ترعى «**زيد بن حارثة**» الذي اشترته من سوق الرقيق، وكان ابن سيد أحد القبائل إلا أن تُجار الرقيق اختطفوه، وباعوه كعبد، فربته وعنيت به كأحد أبنائها، ولما رأت حُب رسول الله له، وهبته له رضي الله عنها.

ولعلنا هنا نلمح صفاء السريرة لتلك السيدة الكريمة، التي عوضت

ما حُرمت منه في عطائها للآخرين، بدلاً من أن تجعل حرمانها سبباً في بغضها للآخرين أو كره الآخرين لها، وهي هنا أمامنا قدوة حسنة نقتدي بها، في محبتها للآخرين، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم.

وكما يقول الدكتور محمد الهاشمي في كتابه القيّم «شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسُّنَّة»:

(إن من أهم صفات المرأة المسلمة أن تكون محبوبة آلفة مألوفة، تحب النساء ويحببنها، ويقبلن عليها كلما أتيحت لهن فرصة ليعببن (ليستمتعن) من حديثها الطلي، وتوجيهها الشائق، وعلمها النافع، ومثل هذه المرأة المسلمة المتألقة، تستطيع أن تؤدي رسالة، وتسدي نفعاً، وتُرَجي لنهضة، وتقوم بتوعية، وهذا شأن المرأة المسلمة الواعية المستنيرة بهدي دينها، آلفة مألوفة، ومن لم تكن كذلك، فلا خير فيها كما جاء في الحديث الشريف: «**المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يَألف ولا يؤلف**»[1].

الله سبحانه وتعالى يقرئ السلام لخديجة:

عن أنس رضي الله عنه قال:

جاء جبريل إلى النبي ﷺ وعنده خديجة قال: «**إن الله يُقرىء خديجة السلام**».

فقالت: «**إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته**»[2].

---

(١) رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٩٠ باب المؤمن يألف ويؤلف ـ حديث حسن السلسلة الصحيحة (٤٢٦).

(٢) رواه النسائي في فضائل الصحابة (٢٥٤) وإسناده حسن.

فأي حكمة هذه التي حبى الله به هذه السيدة الكريمة.

ولم تحظ السيدة خديجة من أركان الإسلام إلا بركن واحد هو شهادة أن لا إله إلا الله، فهى توفيت قبل أن تفرض الصلاة، وقبل ان يفرض الصوم، وكذلك الحج ورغم ذلك فقد بلغت هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة . . .

إلا أنها شوهدت تصلي مع الرسول الكريم بعد أن علمه جبريل الصلاة، ثم علمها الرسول بدوره، وكانت تضرب عليها الخمار ﵁ قبل أن تنزل آية الحجاب . . .

وقد رُوي أن جبريل عليه السلام علّم الرسول ﷺ الوضوء والصلاة ركعتين، فأتى خديجة فأخذها فتوضأت وصلت ركعتين معه، وقيل كانت صلاة الضحى.

وكذلك كانت سيدتنا الفاضلة من جيران بيت الله الحرام فبيتها كان ملاصقاً للكعبة، وكم من مرات ومرات، طافت حول الكعبة، وبجلتها وعرفت حقها، أما عن زكاتها، وتصدقها فيكفينا موقفها من السيدة حليمة السعدية مرضعة الرسول التي أعطتها أربعين رأساً من الأغنام، ليدلنا موقفها هذا على شدة كرمها وحسن زكاتها وطيب صدقتها . . . وهكذا نجدها اهتدت إلى خلق الإسلام قبل أن تأتي شريعته . . . !

وقد تأثرت لقول إحدى الباحثات :

إن السيدة خديجة ﵂ وأخواتها من سيدات نساء أهل الجنة اللواتى أتين قبل الإسلام مثل السيدة آسية، ومريم . . **هن سيدات نصرن شريعة الله فنصرهن الله، آمنوا باللّه يقيناً فرعاهن الله سبحانه وتعالى، وقد حققوا**

معنى الإيمان باللّه، قولاً وفعلاً وهذه نقطة هامة جداً، فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، فقد اهتدين إلى الإسلام بفطرتهن السليمة وهن ينطبق عليهن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

الشخصية المعمرة لذاتها والآخرين:

وشخصية السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها من الشخصيات الثرية بصفاتها المعمرة لذاتها وللأخرين، ويكفينا حكمتها كزوجة عندما طمأنت زوجها رسول الله ﷺ عند نزول الوحى، ويكفينا موقفها عندما أهدت غلامها «**زيد بن حارثة**» إلى رسول الله عندما لاحظت محبته له.. فجعلته خالصاً له لاتستخدمه في شيء خاص بها، وغيرها من المواقف الجليلة التي إن دلت على شيء إنما تدل على حكمتها الزوجية، وسعة عقلها ورجاحته، وتفانيها في إسعاد زوجها، وتوفير سبل الراحة له.

وهنا يبشّر رسول الله ﷺ كل امرأة صالحة تتخذ من حسن التبعل لزوجها سبباً لدخول الجنة كما فعلت أمنا خديجة فيقول: «**إذا صلّت المرأة خمسها وصامت شهرها وحصنت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي من أي أبواب الجنة شئت**»(١).

خُلقها رضي الله عنها:

من أهم الأخلاق التي نلمحها في خُلق هذه السيدة الكريمة **صفة الحكمة مع كل من حولها**، ومن أُوتي الحكمة فقد أُوتي الخير الكثير، والحكمة هي ضالة المؤمن كما يقولون.

(١) حديث صحيح ـ صحيح الجامع (٦٦٠) ـ رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ١٩١).

ولعل موقفها الحكيم من زواج ابنتيها رقية وأم كلثوم من أبناء أبي لهب، وأم جميل تلك المراة التي أطلق عليها القرآن لقب حمالة الحطب يظهر تلك الحكمة. . . !

فهذه المرأة كانت حماة بنتيّ رسول الله ﷺ، وكانت سبباً مباشراً في طلاقهما. . . ومع ذلك ورغم هذا العداء الواضح من تلك السيدة الشريرة. إلا أن سيدتنا الكريمة مانطق لسانها بحرف واحد عن هذه السيدة، ولم تذكر لنا كتب السيرة كلمة واحدة تحدثت بها سيدتنا الجليلة عن أم جميل أو حمالة الحطب كما سماها القرآن الكريم، ونفهم من ذلك انها كانت من الكاظمين الغيظ بل والعافين عن الناس وانها رضي الله عنها إذا ما حزبها أمر بثت شكواها إلى الله وحده لاشريك له.

أما الخلق الكريم الآخر الذي لازم سيدتنا الكريمة هو **خُلق اللين** وعن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: «**حُرم على النار كل هين، لين، سهل، قريب من الناس**»(١).

وقد قيل في وصف أهل رسول الله:

«**هينون، لينون في بيوتهم**».

واللين يُورث الدرجات العلى من الجنة.

ويقول رسول الله ﷺ:

«**إنّ في الجنة غرفاً، يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها**

---

(١) رواه الترمذي ـ مسند الإمام أحمد صححه العلّامة أحمد شاكر (١٩/٦) ـ صحيح الجامع (٥٣١٣).

أعدها الله تعالى لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»(١).

وما كان أجمل من خُلق السيدة الكريمة، التي لم يُروى عنها الحدة أو الشدة بل كانت الهينة اللينة، السمحة العطوفة، الواصلة لرحمها، وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصل رحمه»(٢).

محبة الله وصدق النية والتمسك بالدين في أحلك اللحظات...

وكيف لا وقد ثبتت على دين سيدنا ابراهيم الحنيف ولم تسجد لصنم طيلة حياتها، وذلك رغم اشتغالها بالتجارة فلم تخسر دينها لتكسب دنياها... ولم تضعف ولم تقل أنَّ مَنْ حولي كانوا فاسدين ومشركين فماذا أفعل ؟!

وهذا يدل على أننا مطالبون بأن نتمسك بديننا حتى لو فسد كل مَنْ حولنا...

القيادة بالأمومة... وهو أسلوب تربوي، يؤتي ثماراً إيجابيةً تماماً إذا أُحْسِنَ استخدامه وهويصلح مع الأزواج والأولاد وبعض الأقارب فكم من موقف كانت السيدة خديخة كلام لسيدنا محمد ﷺ قبل الزوجة...

---

(١) حديث حسن رواه أحمد ٥/ ٣٤٣، وابن حبان٢/ ٢٦٢ كتاب البر والإحسان ـ صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٢) متفق عليه انظر شرح السُّنَّة ١٣/ ١٩كتاب البر والصلة.

قوة التحمل، وشدة الكرم:

تحملت مع نبينا الكريم حصار الشعب واختارت أن تمت وهي مؤمنة خير من ان تعيش على غير دين الله...

وها هو كرمها يتدفق في كل مكان من حولها فنراها كريمة مع ضيوفها وخادميها، مع أولادها واقاربها، مع الغرباء، مع الأطفال والكبار والصغار...

وهنا يقول الرسول ﷺ:

«إنّ من أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون»[(١)].

قالوا يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون، والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال المتكبرون.

لقد كانت رضي الله عنها موسوعة في الخُلق القويم والحكمة البالغة والعطاء اللامحدود، وما بناتها رضي الله عنهن إلا قطعة منها تربين في مدرستهاوتخلقوا بخلقها وخلق أبيهم ...

ولهذا فقد كان يوم وفاتها يوم حزن... وألم وسمي ذلك العام بعام الحزن.

ولم يشعر سيدنا محمد ﷺ بالوحدة الا بعد وفاة الحبيبة خديجة... فقد كانت الأم والزوجة والصديقة، الرفيقة والاخت

(١) حديث حسن ـ صحيح الجامع (٢٢٠١) ـ رواه الترمذي.

والوزيرة، وكانت خير سند وخير عضد لخيرة خلق الله فعليها وعلى رسولنا الحبيب أفضل الصلاة والتسليم.

ماتت السيدة خديجة بمكة ودفنت بمقابر المعلاة في الجحون، في رمضان[١] وهي في الخامسة والستين من عمرها، قبل الهجرة بثلاث سنوات، بعد مشوار طويل من العطاء وبعد أن تأثرت من المرض الشديد الذي لحق بها من جراء الحصار الجائر الذي فرضه عليهم كفار قريش، في مكة، وقد حزن الرسول لفراقها حزناً شديداً.

ماتت بعد أن بشّرها الله سبحانه وتعالى ببيت من قصب لا نصب فيه ولا صخب...

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «**يا رسول الله هذه خديجة قد اتتك، معها إناء فيه إدام ـ أو طعام أو شراب ـ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل، ومني. وبشرها ببيت في الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب**» متفق عليه[٢].

(١) من أعلام النبلاء (٢/ ١١١).

(٢) البخاري (٣٨٢٠) ـ مسلم (٢٤٣٢).

السيّدة مريم ابنة عمران عليها السلام

نساء

مريم ابنة عمران

«هي مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر» ويرجع نسبها إلى سيدنا سليمان ابن داوود عليه السلام.. وقصتها فيض من الأنوار الربانية، ومعجزة من معجزات الله العلية، وهي الوحيدة التي سُميت سورة باسمها في القرآن الكريم، وهي سورة مريم»، وهي سورة مكية، نزلت بعد سورة فاطر، وترتيبها في المصحف بعد سورة الكهف، سورة الفتية المؤمنين.

وكأن الله سبحانه وتعالى يريد ان يقول لنا نحن معشر النساء أبشروا.. فكما أن هناك فتية مؤمنون خُلِّدَ ذكرهم في قرآن كريم يُتلى إلى يوم القيامة، فهناك أيضاً فتيات مؤمنات سوف تُخلد ذكراهم إلى يوم الدين.

وكأنه نداء رباني إلى كل امرأة أو فتاة أن تتخذ من هذه الفتاة النموذج الحى والقدوة الحسنة لمن صَدقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين أي من العابدات، المطيعات لأمر ربها فيما أمرها به، والمنتهية عن كل ما نهاها عنه.

جاء ذكر السيدة «**مريم ابنة عمران**» في القرآن الكريم قريباً من أربع وثلاثين مرة وهي السيدة الوحيدة التي جاء اسمها بالتصريح وليس بالتلميح، كما هي عادة القرآن الكريم في ذكر سيرة النساء المؤمنات.

فنرى مثلا قوله تعالى في سورة «طــه» مشيراً إلى زوجة سيدنا موسى فيقول تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ...﴾ [طه: ١٠].

ونرى الأمر يتكرر عندما يتحدث عن أم موسى في نفس السورة فيقول تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٨] ولم يذكر اسم كلٍّ من زوجة موسى ولا أمه.

ويتكرر الأمر نفسه عند الإشارة إلى آل بيت النبوة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وكما يقول تعالى في سورة الإنسان مشيراً إلى السيدة فاطمة الزهراء وزوجها: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

والأمثلة في ذلك كثيرة في القرآن الكريم، فلم يذكر اسم امرأة تصريحاً إلا السيدة مريم عليها وعلى ابنها، وعلى سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد أفضل السلام.

ويفسر لنا العلماء ذلك بأن قصة السيدة «مريم» ليست كغيرها من القصص التي يمكن تكرارها أو حدوثها مرة أخرى بل هي تعتبر من الخوارق التي لا تحدث على مر الزمان إلا مرة واحدة وهي أيضاً من المعجزات التي لا تتكرر.

وكذلك فإن الابتلاء الذي تعرضت له هذه السيدة الكريمة لم يكن هيناً فقد كان مؤلماً، وشديداً، حتى إنها ورغم شدة إيمانها تمنت الموت في وقت ولادة ابنها وحتى يعوضها الله سبحانه وتعالى خلد ذكرها في كتابه المحفوظ إلى يوم الدين.

واسم مريم لم يكن شائعاً في ذلك الوقت ومعناه «**العابدة أو**

الخادمة» ويأتي اسمها متماشياً مع شخصيتها فقد تفرغت طول حياتها للعبادة، وكانت تخدم في بيت الله، وحقاً فكل له من اسمه نصيب...! وقد قيل أنه كان أيضاً اسم أخت موسى وهارون عليهما السلام فسميت على اسمها تيمناً بها.

ويشير الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم إلى **أن آل عمران** أُسرة مختارة ومفضلة مع من فضلهم على العالمين وقد اختار المولى عز وجل هذه السلسلة مَنْ بني آدم لرسالاته وحمل لواء دينه، لإخلاص هذه الفئة بعينها في تبليغ شريعة ربها ولأنهم كانوا خالصين من الصفات الذميمة مزينين بالصفات الحميدة، التي تليق بمن اختيروا لهداية البشر إلى طريق الحق والنور والوحدانية.

ومريم هي من آل عمران، فهي من عائلة كريمة في النسب والدين عظيمة في الخلق لا يمكن لقادح أن يتعرض لها بسوء، وقد أكدت لنا الآيات الكريمة هذا المعنى المقصود من الطهر والعفاف فيقول تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤].

من هي أم السيدة مريم؟

ولعلنا نتسائل، من اين أتى هذا النور وكيف بلغت مريم ما بلغته من طهر وإيمان وعبادة وكمال؟... وقد يزول هذا العجب عندما **نعرف من هي أم مريم...**

والدة السيدة مريم هي السيدة **«حنة بنت فاقود بن قابيل»** وكانت من العابدات الصالحات، التقيات، وقد كانت مؤمنة بربها أشد الإيمان رغم فساد من حولها من نساء بني اسرائيل ورجالها، وقد رزقها الله سبحانه

وتعالى هي واختها بزوجين صالحين مثلهما بل أشد منهما تُقىً وصلاحاً، فتزوجت حنة «**عمران**» صاحب صلاة بني اسرائيل في زمانه، وتزوجت أختها «**أشياع**» زكريا نبي ذلك الزمان.

وهكذا فإنه ما من فتاة تتقي ربها وتحرص على مرضاته إلا ويرزقها الله سبحانه وتعالى بالزوج الصالح الذي يُعينها على أمور دينها ودُنياها، فيبدآ حياتهما معاً على تقوى وإيمان، ويكون ثمرة هذا الزواج ذرية صالحة.

لكن ثمرة زواج السيدة حنة قد تأخر كثيراً وتقدّم بها العمر هي وزوجها ولم ينجبا أحداً من الأولاد.

استسلم الزوجان لمشيئة الرحمن وظلت السنون تمر بهما . . .

الى أن جاء يوم على السيدة حنة ولم يكن كغيره من الأيام فقد أصبحت مستبشرة أنهت طاعتها الصباحية أو كما نقول نحن «**أذكار الصباح**» وخرجت تشم نسيم الهواء وإذ بها أمام عصفورة ضعيفة، تخرج من **أحشائها بيضة صغيرة، في** انتظار فرخ صغير، يخرج إلى الحياة ويملؤها بهجة وتغريداً . . .

هال السيدة حنة ما رأت . . .

وناجت السيدة «**حنة**» نفسها وقالت: **يا ويلتي أَعَجَزْتُ أن أكون مثل هذا الفرخ الصغير**»!

فبكت حُزناً على حالها، وَرَثَتْ لنفسها، ولكنها لم تطل البكاء ولم تيأس إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، وكما يقول سبحانه وتعالى في سورة يوسف: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ولم تذهب مثلاً إلى آدميّ مثلها تشكو لها

حالها، ولم تفكر في أختها مثلاً لتبث لها شكواها فقد كانت أختها على نفس حالها لا تنجب الأولاد.. .لكنها لجأت إلى العزيز القوي صاحب الإرادة والمشيئة فبثت له شكواها وابتهلت إليه ودعته، كما لم تدعُ من قبل..! أليس هو مجيب الدعاء، سامع النجوى، ومحقق الأمنيات وكأن لسان حالها يقول:

١ ـ يا مالك الأملاك أنت المقصد　　يا من له كل البرايا تصمدُ
٢ ـ أبواب كلّ مملك قد أوصدت　　ورأيت بابك واسعاً لا يوصدُ
٣ ـ لا تسألَّن بَنِي آدم حاجة　　وسل الذي أبوابه لا تحجبُ
٤ ـ الله يغضب إن تركت سؤاله　　وبَني آدم حين يُسأل يغضب

وما إن أنهت السيدة حنة دعوتها إلى الله، وبثت اليه حزنها وشكواها، وذهبت إلى بيتها ومرّ عليها اليوم أو اليومين؛ إلا وشعرت أن الله قد استجاب لها، وجاءتها البشارة، ففرحت.. وذهبت وبشرت زوجها الذي لم يُصدق في بداية الأمر. .. فقد كان العمر تقدم به وبزوجه، لكنه علم ان الله على كل شيء قدير، فظلا يشكران الله على معجزته لهما الأيام الطوال ويدعوان لوليدهما بالخير والبركة.

المولودة اليتيمة:

مرّت الشهور سريعة وسعيدة على الأم التي تنتظر مولودها إلا أن الموت لم يمهل عمران زوجها ليرى مولوده المنتظر فمات قبل أن تولد مريم بشهر أو شهرين..!

لكن الأم المؤمنة لم تنهار ولم تيأس بل قالت إن الله قد أخذ منها شيء وها هي تنتظر عطاء ربها في شيء آخر.

الدعاء للجنين في أحشائها:

ارتأت سيدتنا الفاضلة «**حنة**» على غير عادة الكثيرات منا أن مهنة الأُم تبدأ قبل أن يأتي المولود وليس بعد، فقد كانت السيدة حنة لا يكاد يغمض لها جفن من كثرة الدعاء أن يكون جنينها صالحاً، ومتقبلاً ولا يَمسه الشيطان ونوت أن تنذره للمعبد فقد كان من عادة بعض العُبَّاد من بني اسرائيل أن الابن الذي يولد يُوهب للمعبد حتى الثامنة أو السابعة عشر فيُخير إن شاء استمر وان شاء امتهن مهنة من مهن الدنيا.

ويأتي القرآن ليحدثنا تحديداً عما قالته السيدة حنة فيقول: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

ولعل بعض الأمهات قد تنسى أن تدعو لجنينها وهو في أشهره الأولى ولكن هذه القصة تعلمنا غير ذلك.

تلك السيدة المؤمنة التي ببركة دعائهاوبصلاحها وصلاح زوجها حملت في أحشائها الطاهرة من ستصبح فيما بعد سيدة نساء العالمين، وإحدى سيدة نساء أهل الجنة.

وليس الذكر كالأنثى:

وضعت السيدة «**حنة**» بعد طول انتظار، ولما جاءت أنثى، تعجبت السيدة المؤمنة «**حنة**» وخافت أن لا تفي بنذرها وتنجز وعدها في أن تنذر المولود ليكون من خُدام بيت المقدس!

ولكنها عزمت، وما عزم المؤمن كغيره من الناس، فالمؤمن إذا نذر لله شيئاً فعل، وإذا نوى عمل طاعة لله ما منعه من فعل هذه الطاعة انسان.

ومريم هي أول فتاة نُذرت لهذه المهمة فقد كان الرجال هم المختارون لها باعتبار ان المرأة تُعيقها أشياء مقدّرة عليها كالحيض والحمل والنِفاس. ونسمع السيدة حنة وهي تناجي ربها في سورة آل عمران: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فكان رد ربنا الكريم إلى هذه المرأة المؤمنة: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا...﴾ [آل عمران: ٣٧].

وما إن استراحت الأم من عناء الولادة وآثارها وأرضعت ابنتها مرات معدودة، لفتها في خرقة (أي قطعة من القماش) وأخذتها إلى بيت المقدس ووضعتها بين يد الأحبار ليبدوا فيها رأيهم، وكان الأحبار في ذلك الوقت هم من أحفاد وأبناء أحفاد هارون أخي موسى عليه السلام.

وكان لهم الإشراف على بيت المقدس ؛وما إن رأى الأحبار هذه الوليدة الصغيرة حتى هالهم ما رأوا من جمالها وقبولها ومالت قلوبهم نحوها وتنافسوا على كفالتها خاصة وهي ابنة عمران خيرة أحبارهم واكثرهم تقىً وصلاحاً.

وهناك قول آخر يرجح أن مريم الطفلة قد استكملت رضاعتها من امها وبعد أن وعت وتكلمت ذهبت بها والدتها إلى الأحبار...

وهنا نلحظ ثبات الأم الصالحة على الوفاء والبر بما وعدت..! أن هذه الزوجة التي حُرِمَتْ من الإنجاب فترة طويلة من حياتها...كان من الممكن أن تتراجع أو تتعلل عن نذرها لخدمة وليدتها أو وليدها إلى بيت المقدس ولكنها آثرت رضا الله عما تميل اليه نفسها...فحتى بعد أن

تأكدت أنها أنثى، إزداد اصرارها على ذلك، وكانت رمزاً للثبات على المبدأ وعدم الحنث بالوعد، أو النذر...

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى هذه السيدة المؤمنة من أهل الكتاب التي ثبتت على عبادة الله الحق، في وقت فسد فيه معظم من الناس في ذلك الزمان... وقد أكرمها سبحانه وتعالى عدة مرات...

أولها: بأن أجاب دعواهاورزقها ما تمنت.

ثانيها: بأن تقبل منها ما نذرت ورزقها الذرية الصالحة المصطفاة.

ثالثها: بأن سمى سورة في القرآن الكريم باسمها ف «**آل**» تعني أهل وآل عمران أي أهل بيته وزوجه.

رابعها: أن الله سبحانه وتعالى قد سمى سورة أخرى في القرآن الكريم باسم ابنتها وهي السورة التاسعة عشر التي تسمى سورة مريم.

ويأتي كرم الله لعبدته الصالحة «**حنة**» بعد عدة **إختبارات وابتلاءات كثيرة**...

أولها: أنها حُرمت من الإنجاب وعاشت أغلب حياتها تقريباً وحيدة بلا ذرية.

وثانيها: أنها أُبتليت بفساد مَنْ حولها ونساء مجتمعها، فثبتت على الايمان هي وقلة.

وثالثها: موت زوجها **قبل** أن تضع مولودتها بعد أن عاشا زمنا طويلاً ينتظراها.

رابعها: أنها حُرمت من مولودتها الصغيرة عن طيب خاطر للوفاء بنذرها.

وهنا يتجلى لنا منهج الله سبحانه وتعالى مع عباده الصالحين فهو يبتلي عباده الصالحين؛ ليجتبيهم، ثم ليصطفيهم.

ويقول الرسول الكريم ﷺ:

«عجباً لأمر المسلم! إنّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»(١).

نعود للمولودة الصغيرة المتلألئة مريم... والتي كان من بين الأحبار المتنافسين لرعايتها زوج خالتها زكريا عليه السلام وكان نبي ذلك الزمان، وقال لهم سيدنا زكريا: ـ

«أنا أحق بها لأن خالتها عندي وذلك لأن الخالة ـ كما ورد في الحديث بمنزلة الأم ـ فأبوا وطلبوا الاقتراع عليها وقالوا نطرح أقلامنا في النهر الجاري وقيل أنه كان نهر الأردن فمن صعد قلمه فوق الماء فهو أحق بكفالة مريم».

ففعلوا ذلك فارتفع قلم زكريا عليه السلام فوق الماء وغطست أقلامهم، فأخذها زكريا وكفلها وضمها إلى خالتها واسترضع لها ورعاها هو وزوجته التي تعرف باسم **«أشياع»**.

وهنا يشرح لنا النص القرآني الكريم وهو يخاطب سيدنا محمد عليه

---

(١) صحيح مسلم ١٨/ ٢٥ كتاب الزهد.

أفضل الصلاة والسلام فيقول رب العالمين: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

مريم العابدة:

مرت السنون وكبرت مريم وبلغت مبلغ الوعى، أو يُقال عندما بلغت عاماً أو عامين، أخذها زوج خالتها سيدنا زكريا عليه السلام إلى بيت المقدس حيث يكتمل الوعد، وينجز ما نذرته السيدة حنة أم مريم على نفسها، ولا تذكر لنا كتب التفاسير عن هذه السيدة العظيمة شيئا بعدما كبرت ابنتها، بل ويرجح البعض أنها ماتت قبل أن ترى ابنتها وهي يافعة.

وتهيأ لمريم الفتاه غرفة صغيرة ملحقة ببيت المقدس بنيت لها خصيصاً، لها سلم ربما يكون سلماً خشبياً بناه لها نبي الله زكريا الذي عُرف عنه أنه كان نجاراً.

ويقال أن مريم عليها السلام كانت لم تتجاوز الثلاث سنوات..! فجعل لها زكريا خادمة في محرابها ظلت معها حتى كبرت، وكان سيدنا زكريا لايدخل عليها حتى يستأذنها ويسلم عليها، وكان يأتي اليها بالطعام والشراب.

وبدأت مريم في غرفتها هذه تخلو بنفسها وتنقطع للعبادة والتأمل، وكانت تتعلم أمور دينها، كما كانت في خدمة بيت المقدس، تنظفه وتطهره وتهيؤه للعابدين والعاكفين وما إن تنتهي من عملها حتى تتجه إلى غرفتها وتعتزل الناس وتتوجه إلى الله في خشوع وتضرع وكانت أغلب عبادتها الصلاة وكانت تقيمها بخشوع وتأنٍّ لله عز وجل وكانت تتبع

صلواتها بالدعاء والابتهال إلى الله الخالق الرازق الوهاب.

ذاعت شهرة مريم في بني إسرائيل، وضُرِبَ المثل بتقواها وصلاحها، وتمنى كثير من الصالحين أن تربى بناتهن وتنشأن مثلما نشأت مريم.

واعتاد سيدنا زكريا عليه السلام أن يحمل إلى مريم عليها السلام في خلوتها تكريماً لها الطعام كل يوم، وبعد مدة لاحظ أنه كلما عاد إليها وجد عجباً.. كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء! وفاكهة الشتاء في الصيف! فتعجب من ذلك..!

انه لم يُحْضِر لها تلك الفاكهة ولا أحد يدخل عليها المحراب فمن يأتي لها بهذه الفاكهة فسألها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]؟

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وفي هذه اللحظات وبعد أن رأى سيدنا زكريا من يقين مريم بربها هذه الدرجة وتلك الثقة أحيا الأمل في نفسه أن يكون له ولد صالح حتى وان كان قد بلغه الكبر!

ولم تكن مصادفة أن يأتينا النص القرآني بدعاء سيدنا زكريا في سورة تسمى بسورة مريم... وما ذلك إلا توضيحاً وشرحاً لهذا الموقف!

فيقول جل من قال: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [مريم: ١ ـ ٦].

وهنا جاء الرد الإلهي لعبده الذي لم يقطع رجاءه في الله عز وجل ولم يتبع سياسة النّفس القصير بأن دعا الدعوة مرة واحدة أو مرتين ثم يئس من إجابة الدعاء ولم يعدها الثالثة! بل إن النص القرآني يشرح لنا أن الداعي قد اشتعل الشيب في رأسه ووهنت عظامه لكبر سنه وامرأته كانت عاقرا!

ومع كل هذه العوائق ردّ عليه ربه سبحانه وتعالى في نفس السورة قائلاً: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٧ ـ ٩].

وكذلك نجد أن إجابة الدعاء هي عهد باق ودائم أبد الدهر من رب العالمين.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«**يتنزل ربنا، تبارك وتعالى، كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول من يدعوني فاستجب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**» وفي رواية لمسلم زيادة «**فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر**»[١].

ومرّت السنون وأصبح زكريا شيخاً كبيراً، ولم يعد قادراً على خدمة مريم، كما كان يخدمها، فخرج على بنى اسرائيل، يطلب منهم كفالة مريم، فاستهموا (عملوا قرعة) بينهم حتى كانت مريم من نصيب رجلٍ تقيٍ

(١) رواه البخاري في الجامع الصحيح (٦٣٢١) ـ رواه مسلم (٧٥٨).

شريفٍ خاشعٍ لله، اسمه يوسف النجار وفي بعض الروايات كان ابن خالها، أو قريباً لها.

وظل يوسف يخدمها حتى كبرت مريم عليها السلام، وبلغت سن البلوغ، فضربت حينها على نفسها الحجاب، فكان يأتي لها الطعام من وراء ستار، وبعد ذلك ابتعدت مريم عن الناس وتفرغت لعبادة الله الواحد، وأخذت لنفسها مكاناً شرقيا، اختارته تجاه شروق الشمس وهنا يقول فضيلة الداعية د. عمر عبد الكافي في برنامجه «**صفوة الصفوة**» بقناة الشارقة. . . إن الإشارة إلى جهة الشرق هنا إنما جاء ايذاناً بإشراق شمس النور والإيمان، على يد معجزة سوف تحدث لها..

وهنا تأتي الآيات الكريمة لتوضح لنا هذا المعنى فيقول الله سبحانه وتعالى في سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا. . .﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٧].

وتتوالى معجزات رب العالمين لهذه الفئة التي اختارها الله عز وجل لتبليغ رسالته فتتنزل الملائكة على مريم في خلوتها تبشرها وتشد من أزرها لإخلاصها في العبادة وتفرغها في الصلاة والدعاء بقلب صادق لا يتعلق بالدنيا ولا بزخرفها فتقول لها: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣].

ولا شك أن هذا الاختيار والتطهير كان إعداداً لأمر عظيم أدهش الدنيا وبهر العالم والناس، ونلحظ هنا أن لفظ الأصطفاء قد تكرر مرتين، وهذا دليل على إعداد ربنا سبحانه وتعالى لسيدتنا مريم واصطفائه لها على مراحل أو بالتدرج على سلم الإيمان مرحلة تلو أخرى. . .

وبينما مريم تخرج من محرابها، وتسير جهة الشرق من بيت المقدس، وبينما هي في طريقها؛ فاجأها **سيدنا جبريل عليه السلام** في صورة رجل حسن الصورة جميل الوجه، فلما رأته فزعت منه واضطربت ويأتي النص القرآني ليصور لنا مراحل هذه المعجزة في سورة مريم فيقول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦ - ١٩].

وهنا نجد التعجب من سيدتنا مريم عليها السلام التي لم تصدق، حدود المعجزة التي تهيأت لها...

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢٠ - ٢١].

حملت مريم بوليدها وبدأت علامات الحمل تظهر عليها وتناثرت أقوال خبيثة تطعن فيها فتوارت عن الناس في مكان بعيد لا يراها فيه أحد وجاءتها آلام الوضع فلجأت إلى جذع نخلة حتى تضع مولودها، وقالت وهي تعاني الآم المخاض: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]...

لكن الله خفف عنها ما تشعر به من كرب وحزن بولادتها مولوداً من غير أب، وبما تعانيه من ضعف ووهن بعد الوضع، فناداها جبريل عليه السلام، ويقال انه عيسى: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ

أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦].

واستجابت مريم . . .

استجابت لهذا النداء، فأكلت من الرطب، وشربت من ماء النهر، وسعدت بمولودها عيسى، وطابت نفساً به، والتزمت الصمت فلم تعد تكلم احداً.

انقطعت مريم عن أهلها أربعين يوماً، حتى انقضت فترة النفاس (أي ما بعد الولادة) وطهرت واستردت عافيتها، وذهبت إلى قومها، تحمل ابنها على كتفها فلما رأوها بكوا وحزنوا حزناً شديداً. . .

وكانت الصدمة شديدة عليهم، فقالوا لها والألم يعتصر قلوبهم: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٢٨]

لم تجب مريم على ما قاله أهلها ولم تبرئ نفسها، بل أشارت لهم إلى وليدها الرضيع ان يُجيبهم. . . فلما فعلت ذلك تعجب القوم وقال احدهم غاضباً: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

وتواجه مريم قومها بمعجزة الهية كبرى وتشير إلى وليدها كي يرد عليهم: فينطق عيسى ابن مريم وينطق في أولى كلماته بأنه عبد الله فيقول: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٢].

فبهت الجميع وعلموا أنهم امام معجزة حقيقية كبرى وتغيرت نظرتهم إلى الامر كله. . .

وتستسلم مريم لأمر الله كما هي عادة الصالحين والمؤمنين بالله

وتبدأ بالاستعداد لرعاية هذا النور الذي أتاها وهذا المولود الذي منّ الله به على بني إسرائيل ليحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويرفع عنهم بعض العقوبات التي فرضها الله عليهم وهنا نجد انّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يطمئن عبدته الصالحة مريم وان يُسكن خوفها، ويطمئنها، فأيدها بمعجزاته المبهرة سبحانه وتعالى وهذا عهد الله دائماً مع عباده الصالحين.

وتتوقف الآيات عن ذكر السيدة مريم عند قول الله ﷻ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩].

ويبدأ الكلام عن المسيح عليه السلام وقصته مع بني إسرائيل وما لقيه منهم.

فقد أدت السيدة مريم دورها العظيم في التاريخ وأي دور ألاوهو دور الأمومة والرعاية واحتضان الدين وجعله الرسالة الأولى لكل أُم صالحة. وكما يقول أحمد شوقي أمير الشعراء:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراقِ

الأم نبت إذا تعاهده الحيا بالري أورق أيّما إيراقِ

ويفسر البعض بأن ولادة سيدنا عيسى إنما جاءت بهذه الطريقة لأن بطون وأصلاب بنى اسرائيل كانت من الفساد بحيث لا تشرف بميلاد نبي جديد.

وقد نتعجب للوهلة الأولى لما حدث مع السيدة مريم؛ لتأتينا الإجابة واضحة بأن الله يخلق ما يشاء. . . فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم، وخُلقت حواء من ضلع آدم ومن غير أم، وها هو عيسى يُخلق من أم ومن غير أب لتكتمل دائرة الإعجاز، ويعلم الناس أن الله يخلق

بالأسباب، ويخلق دون حاجة للأسباب، فهو سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسببات.

وبدأت مريم الصدّيقة ترعى ابنها وتهيؤه للنبوة وتعلمه وتحنو عليه وبدأت مرحلة جديدة من حياتها، مرحلة الأمومة والعطاء ألا وهو أعظم الأدوار للمرأة في هذه الحياة الدنيا. . .

لفظة صدّيقة:

لقد وصف ربنا جلَّ وعلا عبدته الصالحة مريم بأنها صِّديقة وجاء ذلك في الآية التالية من سورة المائدة: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

ويوضح لنا الله سبحانه وتعالى معنى الصديقين في آية أخرى فيقول جل من قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. . . [الحديد: ١٩].

ولقب الصّديقة قد نالته وحظيت بشرفه كثيراً من النساء المسلمات منهن السيدة خديجة، والسيدة عائشة وغيرهن. . .

الصدّيقة وابنها في مصر:

ما كانت الأجواء مهيئة لاستقبال نبي تُجرى على يديه معجزات، أو طفل يتكلم في المهد، ولم تكن أغلب العقول على استعداد أن تصدق معجزة الله للسيدة مريم فبدأت المؤمرات تُحاك في الخفاء لقتل هذا الوليد المعجزة. . . فخشيت مريم على وليدها من بطش اليهود فسافرت به إلى مصر ويُقال أنها مكثت بها اثنتي عشر عاماً.

تربى فيها المسيح عليه السلام، حيث مكثت السيدة مريم وابنها عند رجل من الصالحين، كان لديه داراً واسعاً خصصه لأهل السبيل والغرباء، فلما نزلت السيدة مريم ووليدها، لاقت من هذا الرجل كل بشر وترحاب، وبدأ عيسى الصغير يكبر، فأرسلته أمه إلى الكُتّاب ليتعلم، فتفوق على معلمه. . . ، وبدأت علامات النبوة تظهر عليه، كما حدثت بعض المعجزات على يديه، فذاع صيته، فخافت عليه أمه فارتحلت، وعادت به إلى فلسطين ببلدة الناصرة.

كبر عيسى الفتى وتعلم التوراه وأحكامها، وتلقى من ربه العلم والوحي، وحين بلغ المسيح سن الثلاثين بعثه الله إلى بنى اسرائيل بالنبوة واجرى على يده الكثير من المعجزات، وكانت أمه في ذلك كله؛ فرحةً به خائفة عليه، ومتبعة للحق الذي أجراه الله سبحانه وتعالى على يديه، وشاركته أمه أعباء الرسالة وأعباء اضطهاد اليهود له وكيدهم به.

إلقاء الشبه:

لم يحتمل اليهود أن يظهر لهم نبي جديد يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فخططوا لقتله عليه السلام، فأنقذه الله سبحانه وتعالى وألقى بشبهه على شخص خائن كان من حواري نبي الله عيسى، فأخذه اليهود فصلبوه حياً، بينما رَفَعَ الله عيسى عليه السلام إليه مصداقاً لقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

تؤكد كتب السيرة أن السيدة مريم تُوفيت بعد رفع عيسى عليه السلام بخمس سنوات، وكان عمرها حينئذٍ ثلاثاً وخمسين عاماً.

ماتت بعد أن عاصرت آخر محنة في حياتها وهي فراق الأبن النبي،

ولكن أخبارها تتناقل فتؤكد انها ما امتنعت عن عبادة ربها في أواخر عمرها، مثلما كانت في بداية حياتها فكانت البتول، الطاهرة، الخاشعة العابدة المستسلمة لقضاء الله بحلوه ومره، ماتت بعد أن شاهدت من المحن والابتلاءات ما لا يستطيع بشر أن يصدقه، ولكن الله ما كان ليتركها تواجه كل هذا هي وكل صاحب بلاء إلا بعد أن يُثبته ويعطيه من اليقين ما يشدد به أزره، وحسبها من صبرها وحُسن عبادتها وشكرها لمولاها في السراء والضراء أنها اصبحت سيدة من سيدات أهل الجنة، وسيدة نساء العالمين، ماتت بعد أن ضربت لنا المثل في دور الأم المربية التي علمت وليدها بالقدوة وكانت له الصدّيقة، فاختاره الله لها النبي، الذي يُنبه الناس من غفوتهم ويهديهم إلى طريق الحق والرشاد.

وعن سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال:

«لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون، ولاتنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان، معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية».

ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً بالسيدة مريم عليها السلام في الإيمان فيقول عنها في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وهنا نلحظ أن اللفظة جاءت من القانتين أي العابدين بلفظ الذكر ولم تأتي الآية بلفظة المؤنث فتقول القانتات، ويرجع البعض ذلك إلى أنَّ السيدة مريم تساوت في عبادتها لله بالرجال وأصبحت عبادتها كاملة لا

يُنقِصها ما يُنقِص عبادات النساء الأخرى، حيث أنها انقطعت للعبادة فلم تتزوج، ولم تلد إلاَّ بمعجزة من رب العالمين.

وسورة مريم تلك السورة العظيمة جاءت بإشراقتها في القرآن الكريم، هي من أكثر السور التي جاءت بلفظة «**البر**» البر بالولدين، فجاءت مع يحيى ابن زكريا للبر بالأب، وجاءت مع سيدنا عيسى عليه السلام للبر بالأم، وكأن السورة تؤكد على البر كقيمة هامة علينا جميعاً أن نتحلى به نتعلمه، ونعمل به، ونعلمه لأولادنا وأحفادنا.

وقد يرى البعض ومنهم أ. عمرو خالد : ان تسمية هذه السورة باسم السيدة مريم انما سُميت كذلك : لأن الأم هي المورثة الحقيقية للدين وهي التي تربي وترعى الطفل حتى يبلغ رشده، فسميت السورة باسم سيدة نساء العالمين لأهمية دور المرأة بشكل عام في تعليم الدين للأبناء، ولأن السيدة مريم نفسها كانت نموذجاً رائعاً لمن وَرِثت الدين عن أهلها (آل عمران) ووَرَثَته لإبنها.

سورة مريم من السور الجميلة في القرآن ـ وكل القرآن جميل ـ لكن علينا أن نتعلمها ونعي آياتها ونَعْلَم أن أولادنا ما رُزقنا بهم إلا لنسعد بهم في الدنيا والآخرة، في الدنيا نسعد بصحبتهم وبرهم، وبتعليمهم ما ينفعهم من علوم الدين والدنيا وفي الآخرة نسعد بصحبتهم أيضاً في الجنة إن شاء الله، **ولكن بما حصدوه بأنفسهم من أعمال، وبما وفقنا نحن في تعليمهم من أمور دينهم، وقرآنهم وسُنَّة نبيهم محمد ﷺ.**

السيدة آسية بنت مزاحم رضي الله عنها
امرأة فرعون

آسية بنت مزاحم

شهد الله سبحانه وتعالى لهذه الشخصية بالإيمان من فوق سبع سموات، وجاء اسمها مخلداً في كتابه الكريم، فيقول سبحانه وتعالى في سورة التحريم: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ. . .﴾ [التحريم: ١١].

فمن هي هذه الشخصية التي شهد الله سبحانه وتعالى لها بالإيمان؟. . . وما هو رصيدها من الأعمال الصالحة الذي أهّلها لنيل هذا الشرف العظيم.. ولماذا اختارها الله تعالى من دون النساء المؤمنات إلى يوم القيامة فأثنى عليها ووضعها جنبا إلى جنب مع أفضل نساء العالمين!!

يقول الكاتب محمود شلبي في كتابه حياة آسية:

«فكرت ملياً فتبين لي أنّ السر في ذلك أنها انفردت بخصيصة فريدة.. إنها كانت ملكة. . . ذات عرش عظيم. . ، تجلس على عرشها إلى جوار زوجها.. أعظم ملوك عصره. . . فرعون الجبار..

ملكة مقدسة.. جميلة عصرها، تحت قدميها كل مايتصور من الأبهة والزينة.. لكنها ضحت بكل ذلك.. وتحدت فرعون، وهتفت: **«لا إله إلا الله»**.

فانقلبت من حضرة صاحبة الجلالة المقدسة. . . الملكة آسية؛ إلى

امرأة منبوذة... ألقاها اللعين أرضاً .. ووتد يديها بالمسامير الغلاظ.. وقدميها بمثل ذلك... فما تراجعت... وما لانت... وما وهنت.. ولكنها ازدادت إيماناً بربها... وازدادت احتقاراً لفرعون، فلما يئس اللعين، من عودتها، أمَر زبانيته، فقتلوها أبشع قتلة... ومن هنا صارت من الخالدات.. فتضحيتها كانت عظيمة وتعذيبها أعظم.. وإيمانها أكبر! سلام على آسية إنها مثال يندر وجوده في النساء..!

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه... قال: قال رسول الله ﷺ:

«كمُل من الرجال كثير ولم يَكْمُل من النساء إلاَّ مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[١].

وآسية رضي الله عنها ملكتنا هذه... أتاها الله من جمال العقل وما له ما يخلد ذكراها إلى يوم الدين، ومنحها الله سبحانه وتعالى من الحكمة والإيمان والجمال، ما تفوق به نساء اليوم بكثير..، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون عن الإيمان ولم يغرها أنها كانت زوجة لرجل لم يكتف بمُلك لا يدانيه ملك، فزعم أنه إله...! واستخف قومه فأطاعوه؛ وعبدوه من دون الله!!

ولنقترب من الصورة أكثر لنتعرف على السيدة الرابعة من سيدات أهل الجنة..

إنها آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان ابن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف عليه السلام.. وكانت على نسبها ورفعة قدرها شديدة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٦٩).

الجمال حسنة الخلق فتمنى الزواج منها الكثيرون إلا أن نصيبها جاء من فرعون مصر وملِكها! وكان هذا الزواج، هو الاختبار الذي نجحت فيه بجدارة واستحقت عليه لقب إحدى سيدات أهل الجنة الأربع.

زواج آسية من الطاغية:

ولما سمع فرعون بجمال آسية أراد أن يأخذها في قصره كجارية أو أمَة لكن أبوها الحكيم تلطف إلى فرعون وقال له نحن أهل شرف ومكانة فأرى أن تتزوجها فأُعجب فرعون بمنطق الأب الحكيم الذي أورث ابنته الحكمة؛ وتزوج فرعون «**آسية**» الجميلة بعد أن أقام لها حفلاً كبيراً أعلن فيه أنها الزوجة المقدسة والملكة المطاعة. . . !

وتحدثنا كتب التاريخ أن أُسرة السيدة آسية كانت من الأُسر القليلة المؤمنة في ذلك الزمان، ولم تكن مصاهرة طاغية مثل فرعون بالأمر الهين واليسير على هذه الأُسرة!! وكان أمام هذه الأُسرة المبتلاة حل من ثلاثة حلول: ـ

أولها: أن تخالف الأُسرة أمر فرعون ولا تُزوجه ابنتها فيهلكوا جميعاً.

ثانيها: أن ترضى هذه الأُسرة الكريمة بأن تصبح ابنتهم جارية من جواري الطاغية.

ثالثها: وهو الأهون.. أن تتزوج آسية من فرعون وتُكتب النجاة لأُسرتها.

فاختارت الثالثة وضحت، وأبَت أن تكون سبباً لهلاك أُسرتها. . . !

تزوجت آسية فرعون وانتقلت إلى العيش معه في قصره بل قصوره وشعرت بغربة حيال تلك الحياة الجديدة وداخَلها شيء من الهم والكدر... كيف لا وقد تزوجت رجلاً يزعم انه إله!!! ولعل نموذج السيدة آسية يصلح لأن يكون قدوة لكل النساء الصالحات اللاتي أحياناً ما تصطدم قناعتها ومعتقداتها مع الظروف المحيطة بها.. فعليها باتباع سيرة هذه المرأة الحكيمة، الصالحة التي استطاعت أن توازن في حياتها بين طاعة ربها وحسن معاشرة أخبث الأزواج على الإطلاق، فرعون ذلك الحاكم المتغطرس الجبار...!

فقد تكون الزوجة مثلاً ذات دين وزوجها رجل تستهويه الدُنيا، أو تكون الزوجة ذات مُثل وقيم خاصة تربت عليها في بيت أبيها ثم جاءت حياتها الزوجية فاصطدمت بما رأته من طباع الزوج وعاداته، ولكل هؤلاء النساء نقول... حسبك من السيدة آسية مارأته من أسوأ أنواع الرجال على الأرض، والتي نستنتج منها أنها قامت على ركيزتين:

الركيزة الأولى:

الاعتزاز بشخصيتها وحُسن ظنها باللّه تعالى أنه لن يُضيعها فلم تتحول السيدة آسية إلى شخصية انهزامية أو منهارة بل أعطاها إيمانها قدرة على الصمود والاستمرار. وهي لم تخف من فرعون خوف الجبن والخنوع فلا ينبغي الخضوع الا لله وحده لا شريك له. ولكنها في الوقت نفسه لم تُعجل الاصطدام بهذا الفرعون، فتحكي لنا كتب السيرة أن حياتها استمرت معه ما يزيد عن العشرين عاماً، بل كانت تؤجل معه الصراع ولا تصطدم به قدر المستطاع.

أما الركيزة الثانية:

فكانت الحكمة والعقل وأسلوب اللين في المعاملة أهم وسائلها للتعامل مع هذا الزوج الذي بدوره وعلى تجبره كان مطيعاً محباً لها . . . !

ولا ننسى هنا أن نقول أن السيدة آسية كانت تغلف كل حياتها بالجمال والكمال وكانت على إيمانها وتقواها شديدة التأنق، معتنية بمظهرها تتجمل وتتزين لزوجها، تأتي بالماشطات ليعدوا لها أحدث التسريحات وأجملها، تفوح الرائحة الزكية من المكان الذي تجلس فيه . . .

وكانت على حنقها لزوجها لا تُرى إلا مبتسمة بشوشة تحاول أن تنأى بمواضع الخلاف بينهما وتركز على الإيجابيات، فلم يراها إلا في أجمل صورة، وأبهى هيئة، وكانت لاتتحدث عنه بالسوء لأحد من حاشيتها، فهى تعلم أن كل من بقصرها جواسيس، وكانت تعينه بالرأي والمشورة، فإذا أحست منه العنت، انسحبت بهدوء، كأن شيئاً لم يكن . . .

فأحبها فرعون حباً كبيراً على الرغم من أنه «**فرعون**» ونحن هنا نهمس لكل إمرأة أن ما اتبعته هذه السيدة الكريمة هو واجب على كل إمراة مسلمة أن تفعله، لزوجها الذي اختاره الله لها والذى مهما اختلف معها لن يكون بكل تأكيد مثل فرعون . . .

وهنا نتعلم أن لين الكلام، والسعي إلى الاهتمام بالهيئة سواءً كانت الداخلية أو الخارجية من شانها أن تُورث المحبة والود . . .وها هي السيدة آسية تستخدم هذا الأسلوب وإذ بها تحقق أعلى نسبة نجاح . . .

وهنا يهمس لنا أ. د. محمد علي الهاشمي في كتابه شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الأسلام في الكتاب والسُّنَّة :

لقد حضّ الإسلام المسلمين على أن يكونوا شامة في الناس، متميزين في زيهم وهيئاتهم وتصرفاتهم وأعمالهم، ليكونوا قدوة حسنة، تجعلهم جديرين بحمل رسالتهم العظمى للناس، ففي حديث الصحابي الجليل ابن الحنظلية أن النبي ﷺ قال لأصحابه وكانوا في سفر قادمين على اخوانهم:

«إنكم قادمون على إخوانكم، فاصلحوا رحالكم، وأحسنوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»(١).

والرِحال هنا ما يوضع على ظهر الجمل عند ركوبه. والفحش والتفحش : كل ما يشتد قبحه. فقد عدّ الرسول الكريم ﷺ الهيئة الرديئة والحالة الزرية، وإهمال العناية بالمظهر والتبذل في اللباس والمرافق المفروشة : فحشاً وتفحشاً، وهو مما يكرهه الإسلام الحنيف وينهى عنه.

وإذا كان الإسلام قد حضّ المسلمين عامة على أن يكونوا شامة بين الناس، فقد حضّ المرأة المسلمة بخاصة على أن تكون شامة بارزة ظاهرة متميزة في شكلها ومظهرها وهيأتها، لأن ذلك ينعكس على حياتها وحياة زوجها وبيتها وأولادها.

ومن هنا لا تهمل المرأة نفسها، ولا تغفل عن مظهرها الحسن الجميل النظيف.. في غمرة شواغل البيت وأعباء الأمومة.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم في المستدرك.

فالمرأة المسلمة الواعية هي التي توازن بين مظهرها ومخبرها، وتدرك أنها مكونة من جسم وعقل وروح فتعطي لكل حقه...

عاشت السيدة آسية في ظل مجد هذا الزوج الفرعون، وسؤدده، يحيط بها الخدم والحشم، والحراس، وكانت القصور التي تقيم فيها مع زوجها قصوراً يفوق وصفها الخيال...

نعيم وجاه ومال، وجمال وكنوز تتضاءل إلى جوارها كنوز كسرى ملك الفرس، وأباطرة الرومان. ومع ما كانت فيه هذه السيدة العظيمة من البهرج، والزخرف وزينة الدنيا وما تُعامل به من الخاصة والعامة على أنها زوجة «**الرب الأعلى**»... ورغم كل ذلك إلا أنها غضت الطرف عن ذلك كله ولم يصبها الغرور ولا الخيلاء، فهي ﵂ علمت بفطرتها الإيمانية السليمة، أن كل هذا النعيم زائل، وما عند الله هو خير وأبقى... واتجهت لربها بكل حواسها وآمنت به حق الإيمان فاستحقت ما وصفها به رب العالمين بأنها مثل صالح باقٍ للإيمان يضرب به المثل لكل نساء العالمين إلى يوم الدين.

فيقول تعالى في سورة التحريم آية ١١: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولكن هل كان فرعون زوجاً لا يطاق حقاً أو أن السيدة آسية كانت تبالغ في الأمر ولعلنا نسمع وصف رب العالمين لهذا الزوج فنجد أن ربنا الكريم يصفه لنا في عدة آيات بالكبر والإسراف والطغيان فيقول تعالى في سورة يونس آية ٨٣: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وفي سورة هود يقول عنه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ [هود: ٩٧].

ولنا أن نتخيل زوج بهذه الصفات كيف يمكن أن تستمر الحياة معه وكم تستمر! على أفضل الاحتمالات تستمر الحياة معه عام أو عامين.. أو تستمر الحياة معه على نهجه ظلم وطغيان وكبر ! لكن ذلك لم يحدث مع هذه السيدة الحكيمة فهي لم تصطدم معه ولم تمش على نهجه بل إنها كانت تحسن معاشرته، وتجيد فن معاملته.

وهنا نأتي بقبس من السُنَّة النبوية، فقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ لحاجة ؛فلما فرغت من حاجتها، قال لها الرسول الكريم:

أذات زوج أنت...؟!

قالت: نعم. قال فكيف أنت له..؟ قالت ما آلوه (أي ما أُقصر في حقه) إلا ما أعجز عنه.

قال: «انظري أين أنت منه، فإنه جنتك، ونارك»[١].

هل للسيدة آسية أولاد..؟

اختلف المؤرخون حول إنجاب السيدة آسية فمنهم من يؤكد انها لم تلد مطلقاً ومنهم من يؤكد أنها كانت لا تلد سوى البنات...

نور يخرج من التابوت:

وذات يوم وأمام نهر النيل العظيم وبينما جواري وخدم السيدة آسية يسقون رأت الحاشية تابوتاً خشبياً أي صندوق له فتحات صغيرة يسبح

(١) حديث صحيح ـ رجاله ثقات ـ رجال الشيخين السلسلة الصحيحة (٢٦١٢).

فوق الماء، فأردن أن يفتحن التابوت. . . وظنن أنه كنز من المال فأحضروه إلى سيدتهم التي فتحته ورأت فيه عجباً. . .

رأت فيه طفل صغير ولكنه ليس كباقي الأطفال إنه طفل يتلألأ النور من وجهه على الرغم من أنه ليس بأبيض اللون. . . ولكنها معجزة الله عز وجل الذي ألقى عليه المحبة والقبول أينما كان، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً وما كان من أحد تقع عينه على موسى إلا ويشعر بالحب نحوه، حتى فرعون نفسه..!

ويقال أنه كان لفرعون ابنة تعاني من مرض جلدي في يدها، ووصف الحكماء لفرعون أن الشفاء من هذا الداء لن يكون إلا من لُعاب طفل وليد أي ريقه، فأخذوا من لعاب الطفل الوليد ووضعوه على يد ابنة فرعون فبرئت بإذن الله، ويقال أن ذلك قد حدث مع آسية نفسها. . .

وهنا كتب الله المحبة والقبول لموسى حتى في قلب فرعون. . . فسبحان من يُقلب قلوب العباد بين أصبعيه. . .

وهذه المحبة وإن كانت لنبي الله موسى خاصة فإن الله سبحانه وتعالى يحب كذلك من عباده الكثيرين فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أُحب فلاناً فأحبه. قال فيحبه جبريل. ثم ينادى في السماء فيقول إنّ الله يحب فلاناً فأحبوه. فيحبه أهل السماء. ثم يُوضع له القبول في الأرض...»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٧).

وأسرعت السيدة آسية إلى احتضان الطفل الوليد حتى قالت لزوجها الذي همَّ بقتله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ . . . [القصص: ٩]

واستجاب فرعون لطلبها رغم علمه بنبوءة الكهان من أن مُلكه سوف ينهار على يد غلام من بني إسرائيل، واستدل بذلك المفسرون على علو منزلتها عنده وتمكن حبها من قلبه، بل الأغرب من ذلك أن يأمر فرعون بالتماس المراضع لهذا الوليد.

ولعل قول السيدة آسية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ قد حقق الله ما رجت من النفع، أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه.

وهكذا فقد وقعت محبة الطفل الصغير في قلب السيدة آسية، وصارت تبحث له عن المراضع التي رفضها جميعاً حتى أتت أخته التي كانت تتبع آثاره ودلتهم عن أمه دون أن يلحظ أحد. . . وهكذا. . .

ردَّ الله الوليد إلى أمه كي تقر ولا تحزن على فراق وليدها فعاد إليها ومعه راتب شهري من خِزانة فرعون نفسه..!

وهنا يقول رسول الله ﷺ كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما:

«والذي يُحلف به. . .لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له.. كما أقرت امرأته. . . لهداه الله كما هداها ..ولكن حرمه ذلك»(١).

المرأة الحكيمة:

لما كبر موسى عدة أشهر وصار طفلاً واعياً مبتسماً ويقال في السنوات الأولى من عمره، ويقال أصغر من ذلك. . . فرحت به السيدة

---

(١) الحديث بطوله ذكره ابن كثير في تفسيره (٥/ ٢٧٩) وهو موقوف.

آسية فرحاً شديداً وقالت لأمه التي كانت تُنادى بمربيته: «**أزريني ابني وجهزيه**».

وقالت لمن حولها: ليحتفي الجميع بولدي، وإني ناظرة كيف تحتفون...؟

ولما انهالت على موسى المنح والهدايا من كل من بالقصر، قالت آسية: لآتين به فرعون... يعطيه من المنح والهدايا...

فلما دخلت على فرعون وضعته في حجره، وإذ بموسى الطفل الصغير يُمسك بلحية فرعون، ويشدها شداً، محاولاً أن يجرها إلى الأرض...!

فاغتاظ فرعون وأحس بالإهانة، وأمر بقتل الطفل فوراً، وأعانه على رأيه من كانوا حوله من حاشيته من المنافقين، أمثال هامان وقارون وبقية الحاشية الفاسدة.

فجاءت آسية وقالت:

ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي...؟

فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني؟!

فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً... يُعرف الحق به.. إئت بجمرتين ولؤلؤتين.. فقدمهن إليه فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتينن عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمر على اللؤلؤ وهو يعقل... وقد كان...

فقرب موسى إلى فمه الجمرتين وهمّ أن يضعهما في فمه وقيل أن

لسانه قد أصابه النار من يومها، فقالت آسية لفرعون : ألا ترى؟!

وأخذت موسى من أمامه، ونوت في نفسها ألا تعيد ما فعلته ثانية فقد أدركت بفطرتها مدى الكره الذي يكنه لهذا الوليد. . .

وصرف الله أذاه عن موسى بفضل حكمتها وسرعة بديهتها.

الفرار إلى مديَّن:

حفظ الله موسى حتى صار شاباً يافعاً وقد آتاه الله من القوة ما يعادل قوة عشرة رجال. . .

وبينما موسى يمشي في ناحية المدينة إذ هو برجلين يقتتلان إحداهما فرعونى والآخر اسرائيلي يتعاركان، فاشترك مع صديقه على عدوهما فوكزه أي ضربه في بطنه فخر صريعاً من قوة موسى. . .

تكرر الحادث وكاد أن يفعل موسى ما فعله اول مرة ويقتل رجلاً آخر.

لكن أتاه من يحذره من أن فرعون ورجاله يستعدون لقتله. . . فعلم موسى بذلك ففر هارباً من مصر. . . ولم يعد إليها إلا بعد عشر سنوات. . .

مرّ موسى بأحداث كثيرة بعدما ذهب إلى مدين وتزوج بابنة رجل صالح.. كل ذلك وآسية الأم التي ربته لا تنساه. . .

العودة المباركة:

عاد موسى إلى مصر بعد غياب طويل، ولكنه ما عاد إليها كما خرج منها، فقد منّ الله عليه بنور النبوة، وجاء يهدي من حوله، لنور الله

الواحد وجاء ليحررهم من عبادة العباد والملوك إلى عبادة رب العباد وملك الملوك. . .

وجاء موسى إلى قصر فرعون ليبلغه رسالات ربه. . . وإذ بالسيدة آسية تسمع جَلَبَةً على باب قصرها وأصوات صاخبة، فبعثت من يستطلع الأمر، وجاءها الخادم يقول :

يا سيدتي الملكة لقد عاد موسى ومعه أخاه هارون، يريدان مقابلة سيدي الملك فرعون. . . !!

فخرجت آسية وأسرعت إلى قاعة العرش حيث يجلس فرعون، وإذ بها تجد نفسها أمام موسى ابنها الذي لم تلده ولكن راعها ما رأته من هيئة موسى، فلم يعد ذلك الفتى الشاب الذي ترك القصر منذ عشر سنوات. . .

بل رأت أمامها رجلاً يافعاً، عليه سمات الوقار وآيات المهابة، فسُرت لما رأت من موسى ووقفت تستمع إلى حواره مع فرعون. . .

وعندما علمت آسية من رسالة موسى ودعوته إلى عبادة الله الواحد. . .

كانت اول المؤمنين بموسى وإن كانت تكتم إيمانها. . .

يوم الزينة:

إنه يوم التقاء قوى الشر والسحر، وقوى الحق والإيمان ولكن الله يطمئنه وكل من يؤمن بما آمن به إلى يوم الدين، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

ويأتي السحرة ويستعرضون قواهم ويسترهبوا الناس بسحرهم، ثم يأتي الحق مدعماً بنصرة رب العالمين.

ويقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١٢٢].

ويقول ابن عباس في تفسيره لهذه الآية: «**تلقفت ما يأفكون أي لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلا التقمته، وقال قتادة عن السحرة الذين خروا سجداً: كانوا أول النهار كفار سحرة وفي آخره شهداء بررة**»...

وكانت السيدة آسية تشهد يوم الزينة مع الشاهدين، وهمّت أن تسجد مع الساجدين إلا أنها تمالكت نفسها بما عُرف عنها من حكمة ورجاحة عقل... وما إن عادت إلى بيتها... خرّت ساجدة لرب العالمين.

فكانت تصلي له سبحانه وتعالى وتقيم له الليل وتقول: آمنت برب موسى وهارون، وتظل تعدد نعمه سبحانه وتعالى فتثني عليه وتحمده وتعبده، وما باتت تدري بأن جواسيس القصر قد رصدوا إيمانها وأبلغوا به فرعون؟!...

ولمَّا علم فرعون بالأمر كاد يجن..، فماذا يفعل بها وهي أقرب الناس اليه..!

ولم تكن وحدها آسية التي آمنت فها هي ماشطة فرعون..، وها هو

كبير الحراس آمن كذلك، وكان يُقال أنه أخو السيدة آسية وكان يعلم بمكانة الكعبة ويعرف أنها بيت الله. . . فكان هو وأخته يبعثان بكسوة الكعبة كل عام. . .

وأمام هذا الطوفان الإيماني كانت قوى الشر في الخفاء تدبر وعلى رأسها هامان الوزير المشؤوم، يأمر بحرقٍ وقتل وتعذيب كل من آمن برب موسى وهارون. . .

وبدأ الأمر الفرعوني الظالم بصغار الحاشية. . . فأحرق ماشطة بنات فرعون التي ما توقفت لحظة عن ترديد عبارتها الشهيرة لكل من يثنيها عن توحيد ربها وتقول: «**ربي وربك الله. . .**».

ويحرق أمام عينها أولادها جميعاً وهي ثابتة على قولها حتى كادت أن تنهار أمام صغيرها الذي ما زال في المهد رضيعاً، فأنطقه الله فقال لها: اثبتي يا أمي إنكِ على الحق. . .، فثبتت وربط الله على قلبها حتى لاقته سبحانه وتعالى. .

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أُسري بي، مرت بي رائحة طيبة، فقلت ما هذه الرائحة؟ قالوا ماشطة فرعون وأولادها. . .**»(١).

وجاء الدور على السيدة آسية فجمع فرعون وزرائه، وأعوانه، وشاورهم في أمرها، فقال:

ما تعلمون عن آسية زوجتي. . .؟!

(١) ذكره ابن كثير في تفسير (٥/ ٢٧).

قالوا نِعْمَ المرأة هي عقلاً وحكمة . . .

قال فرعون: فإذا علمتم أنها تعبد غيري . . . !

قالوا: اقتلها وتخلص منها . . . !!

ولمّا علمت آسية أن ساعة المواجهة قد حانت . . . استسلمت لقضاء ربها وأخذت على نفسها العهد بأنها لن تُخفي إيمانها بعد اليوم . . . وظلت تردد آمنت باللّه آمنت برب موسى وهارون . . . ولعل آسيا لم تجد في الحياة بغير دين متعة كما قال الشاعر: ـ

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يُحي دينا

ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

فأمر فرعون بأن تشد آسية من يديها ورجليها بالحبال، وقيل أيضاً بالمسامير وأن توضع صخرة كبيرة على صدرها وقال للحراس إن رجعت عن دينها فخلوا سبيلها . . .

فمرّ بها يوماً موسى وهي على هذه الحال، تعاني من العذاب الأليم ففهم ما تعانيه من الألم والعذاب على يد زبانية فرعون فدعا الله أن يخفف عنها العذاب فاستجاب الله تعالى لدعاء نبيه فأذهب عنها ألم العذاب فلم تشعر به.

وكافأها الله على حسن صبرها بأن كشف عن بصرها فرأت قصرها في الجنة فقالت لمن يعذبونها: اصنعوا ما بدا لكم فقد رأيت قصري ومنزلتي في الجنة وظلت على هذا الحال حتى فارقت الدنيا.

واستجاب الله لندائها حين قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ . . .﴾ [التحريم: ١١].

وقد حاول فرعون إغراءها وإثناءها وإبعادها عن إيمانها فلم يفلح، فأمر بأن يشتد عليها العذاب.. واشتد عذابها فتم ربطها وصلبها في شجرة تحت قيظ الشمس الحارقة اعتقاداً أنها لن تتحمل وسوف تنهار وتتراجع عن إيمانها. وكان فرعون عندما يمر بها يقول:

أترونها قد جنت نحن نعذبها وهي تضحك!!

وكانت ﵂ تضحك أو تبتسم؛ لأن قصرها في الجنة أصبحت صورته لا تفارقها.

وعلى الرغم من كل ما رأته من عذاب فما ضعفت وما وهنت بل ثبتت وتحملت وهتفت بمقولتها الشهيرة التي خلدها لها رب العالمين في قرآن يتلى إلى يوم القيامة: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]. وكانت حرمت من بيتها أو فلنقل قصورها، وظلت شريدة بالأيام فى العراء، رهن التعذيب، تحت قيظ الشمس الحارقة، للّه دَرؤها طلبت جوار الرب الكريم، فقدمت الجار على الدار فقالت رب ابنِ لي عندك وخرجت من طاعة فرعون ورفضت العيش في قصره، فجعلها الله قدوة وأسوة لكل مؤمن ومؤمنة إلى قيام الساعة وامتدحها في كتابه وأثنى على عملها وجعلها خير نساء العالمين..

وكانت آخر كلماتها آمنت باللّه، آمنت برب موسى وهارون، آمنت باللّه الذي لا إله إلا هو، وظلت ترددها قدر ما استطاعت، مراراً وتكراراً. . .

ولم يتحمل فرعون هذا التحدي وذلك الإصرار فقام بفعلته الشنيعة وأقدم على قتلها بأن رماها بحجر ضخم فأرداها قتيلة. إلا أن فرعون لم

يهدأ ولم يهنأ بفعلته فقد رأى ابتسامة الرضا على وجهها، حتى بعد أن فاضت روحها الكريمة رضي الله عنها وأرضاها. . . .

وحسبها ما رأته من عذاب أن خُلدت ذكراها على قوة إيمانها، وشدة صبرها وأصبحت نموذجاً في الصبر والإيمان . . .

وهي واحدة من أربع نساء في الوجود كله من لدن آدم حتى تقوم الساعة هن سيدات نساء العالمين: «آسية بنت مزاحم، مريم بنت عمران، خديجة بنت خويلد، فاطمة بنت محمد. . .» وقد مضى على هذه القصة آلاف السنين تنعم فيها السيدة آسية بالروح والريحان، ويعذب فرعون صباح مساء.

المقارنة بين الشخصيات

على الرغم من اختلاف العصور والأزمنة التى عاشت فيها كلاً من السيدات الأربع إلا أننا نلمح من التشابه بينهما الكثير...

ومن الشخصيات التي تتوائم فيما بينها من صفات جميلة وأخلاق جمة السيدتان **الكريمتان فاطمة الزهراء ومريم البتول.**

ولو حاولنا ان نرسم صورة ذهنية في مخيلتنا لكل منهما لوجدنا بينهما الكثير المتشابه:

آلام اليتم:

لقد اشتركت كلاً من السيدة مريم والسيدة فاطمة الزهراء في آلام اليتم ... فقد وُلدت السيدة مريم يتيمة الأب لم تره... وعانت السيدة فاطمة من آلام اليتم وهي ابنة الخمس سنوات فحُرمت من حنان أمها مبكراً رضي الله عنها... وكان لذلك أثره في كلٍ من الشخصيتين فكانتا متواضعتين بهما لمحة من الحزن والانكسار لله سبحانه وتعالى، ومن أحبه الله جعل له نائحة في قلبه...

كلتاهما كانتا نحيلتين من قلة الطعام وشدة الصيام، فقد كانت كلٌ منهما جل عبادتها الصيام وهنا يقول أبو هريرة رضي الله عنه أوصاني خليلي

بثلاث: **«صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»**[١].

وهي الأيام القمرية من كل شهر عربي وهي ١٣، ١٤، ١٥ وهي تعادل صوم الدهر وتسمى بالأيام البيض...

قيام الليل:

وخلق آخر لم يغادر كلتاهما وكان به قرة أعينهما هو الصلاة...

فقد كانت كل من السيدتين الشريفتين تقيما الليل بطوله حيناً أو جزء منه أحيانا أخرى... وكانتا تناجيا ربهما راجيتا عفوه ورضاه...

وعن فضل قيام الليل يقول الرسول ﷺ:

«عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم»[٢] فإن قيام الليل قربة إلى الله ﷻ وتكفير للذنوب ومطردة للداء عن الجسد ومنهاة عن الاثم.

وقد قيل أن الصلاة تضمن الرزق، والزكاة تضمن البركة، والصدقة تضمن العافية، والصيام يرقق القلب ويسمو بالروح.

السيدتان خديجة وآسية:

وأما السيدتان الفاضلتان خديجة بنت خويلد وآسية بنت مزاحم فقد اشتركتا معا في سمة الحكمة فكلتاهما حكيمتان ومتواضعتان رغم ما أحاط بهما من زخرف الدنيا وبهائها، ورغم ما كان لديهما من ثروة ونفوذ، وخدم وحاشية...

---

(١) فتح الباري (٤/ ٢٢٦) كتاب الصوم: باب صيام أيام البيض ـ صحيح مسلم (٥/ ٢٣٤) ـ كتاب صلاة المسافرين: ـ باب استحباب صلاة الضحى.

(٢) رواه بلال وأبو قدامة قال الألباني حسن بشواهده ـ صحيح الترمذي (٣٥٤٨).

وخُلق التواضع دأب الصالحين وله عند ربنا أجر عظيم خاصة لمن ملك الدنيا واوسع الله عليه في الرزق. . .

فيقول رسول الله ﷺ:

«التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله»(١).

وقد اشتركتا رضي الله عنهما، في خلق آخر ألا وهو **حُسن القيادة في مسيرة الحياة الزوجية**، وقد حازتا على هذه المكانة العالية بحسن تبعلهما لزوجيهما وعلى الرغم من أن طبيعة زوجيهما على النقيض تماماً، فالسيدة خديجة كانت زوجة لأكرم خلق الله سيدنا محمد ﷺ، وكانت السيدة آسية زوجة لأخبث خلق الله فرعون. . . ورغم هذا الاختلاف في طبيعة كل زوج منهما إلا إن في ذلك دلالة على أن المراة المؤمنة مهما كانت طبيعة زوجها تستطيع أن تجعله طريقها إلى الجنة. . .إلا ما كان من دعوى شرك أو إجبار على ما يغضب الله، فهنا يؤيد الله بنصره عباده المؤمنين. . . فرضوان الله وسلامه عليهن أجمعين.

وقد اشتركن جميعاً في صفة حُسن تربية الأبناء والتفاني في تعليمهم ما يزكيهم عند ربهم وحفظهم للكتب السماوية التي نزلت عليهم. . .

كما اشتركن أيضاً في صفات مشتركة جاءت جميعها في سورة المؤمنون:

فيقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

(١) تخريج إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٢٥).

مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ
۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

فاللهم اجعل لنا في سيدات نساء أهل الجنة، القدوة الحسنة، والنموذج المضيء الذي يُنير لنا الطريق، مهما اشتد الضيق...

وقد صح من دعاء النبي ﷺ أنه قال: «**اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين**»[1].

وأخبرنا الله ﷻ أن من دعاء عباد الرحمن قولهم: «**واجعلنا للمتقين إماما**».

ويقول البخاري رحمه الله في تفسيرها: أئمة نهتدي بمن قبلنا ويهتدي بنا من بعدنا...

هذا وبالله التوفيق.

---

(١) حديث صحيح ورجال إسناده ثقات. صحيح الكلم الطيب (١٠٦) ـ صحيح النسائي (١٣٠٥) شرح الطحاوية (١٠٠).

المصادر والمراجع

١ ـ «**القرآن الكريم**»، تفسير ابن كثير/ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار الفكر ـ بيروت.

٢ ـ «**من وصايا الرسول ﷺ**» شرح وتعليق أ. طه عبد الله العفيفي، دار الجيل ـ بيروت..

٣ ـ «**أم المؤمنين خديجة سيدة في قلب المصطفى**» أ. د. محمد عبده اليماني.

٤ ـ «**خواطر قرآنية**» أ. عمرو خالد.

٥ ـ «**قصص الأنبياء للإمام ابن كثير**» تحقيق السيد الجميلي.

٦ ـ «**شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسُّنَّة**» أ. د. محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ لبنان.

٧ ـ «**إحياء علوم الدين**» للإمام الغزالي.

٨ ـ «**حياة مريم**» أ. محمود شلبي.

٩ ـ «**حياة آسية**» أ. محمود شلبي.

١٠ ـ «**من إشراقات سورة مريم**» أ. عنتر الرويني.

١١ ـ «**سلسلة شرائط قمة الخالدات**» أ. د. طارق سويدان.

١٢ ـ «**نساء مؤمنات**» أ. د. ياسين رشدي.

١٣ ـ «**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**» وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة ـ بيروت.

١٤ ـ «**نضرة النعيم في خلق الرسول الكريم**» لنخبة من الأساتذة الأجلاء.

١٥ ـ سلسلة عظماء الإسلام «**فاطمة الزهراء**» محمد كامل حسن المحامي.

١٦ ـ **تراجم سيدات بيت النبوة (رضي الله عنهن)** أ. د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).

الفهرس

مقدمة الكتاب ١١

مقدمة ١٣

ترتيب الشخصيات على صفحات هذا الكتاب ١٥

السيدة فاطمة الزهراء

سبب تسميتها وألقابها ٢٣

البتول ٢٤

أم أبيها ٢٤

مكانتها عند أبيها ٢٥

ملازمتها لأبيها ٢٨

أشياء خُصت بها السيدة فاطمة ٣٠

صفاتها ٣٠

هجرتها والحادثة التي ألمَّت بها ٣٢

زواجها من علي كرَّم الله وجهه ٣٣

الموكب السعيد ٣٦

مشاعر السيدة فاطمة عند زفافها ٣٩

انتقالها للعيش بجوار رسول الله ﷺ ٤٠

حياتها مع علي وأولادها ٤١
السيدة فاطمة أُماً ٤٢
محبة رسول الله لأحفاده الأعزاء ٤٣
صبر السيدة فاطمة وزهدها ٤٤
زهدها رضي الله عنها ٤٥
حُب الرسول ﷺ لها وفضلها ٤٦
القرآن الكريم يتحدث عن فاطمة وزوجها ٤٨
محبته ﷺ للإبنة والزوج ٤٩
حادثة الزواج التي لم تتم ٥١
حنانه ورفقه بأولادها ﷺ ٥٣
فتح مكة ٥٤
العودة الأخيرة للمدينة ٥٤
موت الحبيب ٥٥
حياة قصيرة بعد موته ﷺ ٥٧
موقفها من أبي بكر بعد أن مات أبيها ٥٩
وفاتها رضي الله عنها وأرضاها ٦٠

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

صلة نسب وقرابة ٦٦
من أسمائها وألقابها ٦٧
أم هشام ٦٨
نور يسطع على كل شيء ٧١
زواج خديجة الفتاة ٧٢
الفوز بلقب الأولى ٧٣
اصطفاء واجتباء ٧٤
أرباح مضاعفة ٧٥
الحلم يتحقق ٧٦
الزواج الميمون ٧٧
السند والمال والأهل ٧٨
عطاء لاقى أهله ٨١
أولادها رضي الله عنها ٨١
أمومة جارفة لسيدة بيت النبوة ٨٢
الله سبحانه وتعالى يقرئ السلام لخديجة ٨٣
الشخصية المعمرة لذاتها والآخرين ٨٥
خُلقها رضي الله عنها ٨٥
قوة التحمل، وشدة الكرم ٨٨

السيّدة مريم ابنة عمران عليها السلام

من هي أم السيدة مريم ٩٥
المولودة اليتيمة ٩٧
الدعاء للجنين في أحشائها ٩٨
مريم العابدة ١٠٢
لفظة صدّيقة ١٠٩
الصدّيقة وابنها في مصر ١٠٩
إلقاء الشبه ١١٠

السيّدة آسية بنت مزاحم رضي الله عنها

زواج آسية من الطاغية ١١٧
الركيزة الأولى ١١٨
الركيزة الثانية ١١٩
هل للسيدة آسية أولاد ١٢٢
نور يخرج من التابوت ١٢٢
المرأة الحكيمة ١٢٤
الفرار إلى مدين ١٢٦
العودة المباركة ١٢٦
يوم الزينة ١٢٧

المقارنة بين الشخصيات ١٣٣
آلام اليتم ١٣٣
قيام الليل ١٣٤
السيدتان خديجة وآسية ١٣٤
المصادر والمراجع ١٣٧

هذا الكتاب الذي بين أيدينا فيه لمحات سريعة ومضيئة عن حياة أربعة من النساء في التاريخ؛ صنعن في تاريخ الإنسانية ما لم يستطع آلاف وملايين من الرجال والنساء فعله.

لقد كانت أُمنا **خديجة بنت خويلد** رضي الله عنها في حياة رسولنا الكريم في بداية الدعوة نعم المعين له على أمر الله سبحانه في تنفيذه وتبليغه وظلَّ يذكرها بالخير إلى أن ماتت رضي الله عنها.

أما ابنتها العظيمة، الجليلة، أُم الحسنين، «**فاطمة الزهراء**» (أُم أبيها) كما كانت تلقب فهي بحر من الخلق والصبر لأنها (ذرية بعضها من بعض).

فهذه **مريم** التي اصطفاها الله سبحانه على نساء العالمين لتنجب بمعجزة ربانية روح الله عيسى بعد أن نفخ الله فيها من روحه ليكون بعد ذلك رسالة محبة وسلام لهذه البشرية. وهذه **آسية** امرأة فرعون تضع لكل امرأة في العالم أسوة وقدوة للمرأة الصابرة المحتسبة العابدة التي لا يثنيها عن إرضاء ربها شيء.

إننا في أمسّ الحاجة هذه الفترة إلى أمثال هذه النماذج العظيمة لتهتدي بها نساؤنا وبناتنا.